

صحفيون، وأكاديميون أشرار

و«مخبرون» محليون

حصار العقل العربي

مقدمة:

أثناء سنوات رئاسة بوش، توجّه الكثيرون من أفراد دائرته الحكمة الشهيرة إلي الأكاديميين والمحليين كي يمدوه باللغة التي تبرر استخدام القوة كوسيلة دبلوماسية، وتُمرّر تنويعاً من السياسات الداخلية التي تهدف إلي تقييد الحقوق المدنية في الولايات المتحدة. يعلّق بوب وودوارد علي السرعة التي اجتمعت بها دائرة البيت الأبيض الداخلية لمناقشة مخططات غزو أفغانستان والعراق أيضاً، حيث يقول إن شلة بوش كانت علي علاقة بعدد قليل من «المفكرين» العلاء الذين كانت توجه إليهم الدعوات بانتظام لحضور عدد كبير من النقاشات السياسية والاجتماعية السرية في الأشهر التي تلت ٩/١١، بل ولقيادة تلك الاجتماعات أيضاً.

فى الفصل الأول، تفحصنا عددا من هؤلاء «المفكرين» ورأينا شبكات نفوذهم المختلفة والمتداخلة فى أن التى تُشكّل قنوات اتصال مع الإعلام والسياسيين ومراكز الأبحاث ومراكز وضع السياسات، والحكومة، والتيار السائد. ساهمت أعمال لويس زكريا وأنشطتهما بدرجة كبيرة فى تطوير روايات كان البيت الأبيض ومجموعة الصقور «الفلاكنة» بحاجة إليها لكسب أفئدة الشعب الأمريكى وعقولهم من أجل مواصلة «الحرب على الإرهاب» غير المحددة واللامنتهية. وعلى الرغم من إسهامهما، قلم يبتدع زكريا ولويس مدرسة محددة للإسلاموفوبيا أو قصيلا منها. الأخرى أن أعمالهما هى تكثيف لنموذجين معياريين ثانويين كانا قد ظلّا موجودين داخل إطار الاستشراق وثقافة التيار السائد الأمريكية العنصرية لعدة عقود. تعكس الشبكتان المنفصلتان والمتداخلتان فى أن، واللذان رسمنا كفافهما فى الفصل الأول، نماذج معيارية متداخلة ومتنافسة للإسلاموفوبيا تغلغت فى واشنطن، وإعلام الولايات المتحدة، والمجتمع المدنى شمال الأمريكى.

ومع غزو أمريكا للعراق و«تحرير الكويت» عام ١٩٩١، غدت الولايات المتحدة بحاجة لنماذج ميعارية أكثر شمولاً وتقبلاً من أجل فهم الشرق الأوسط. كان ذلك هو فجر العالم أحادي القطب، وكانت ثمة وفرة في استراتيجيات السياسات والرؤى الجديدة لدور الولايات المتحدة في الشرق الأوسط. ولم يكن من قبيل الصدفة أن تبني كلينتون منظمة التجارة العالمية، ومنظمة التجارة الحرة شمال الأمريكية NAFTA، وكان هذا إيذاناً بوجود حقائق اقتصادية جديدة تواكب الواقع السياسي المستحدث. كان على الولايات المتحدة إعادة تجهيز نفسها أيديولوجياً بحيث يمكنها التعاطي مع «انتصارها» على الشيوعية، انتصارها على منافس أصبح غائباً عن الساحة. ترك هذا الفراغ الذي وجدت فيه الولايات المتحدة نفسها القوة العظمى الوحيدة، ترك معضلات عملية بالداخل حيث عملت «ثورة الجمهوريين» على جرّ التيار الرئيسي الأمريكي نحو اليمين، وأقامت بذلك خطأً قاعدياً يمينياً ذا منحنى أخلاقي بالجيبة الداخلية كان له أن يعمل أساساً لدور الولايات المتحدة الاستباقي كقوة هيمنة كوكبية.

سيتفحص هذا الفصل نماذج لويس وزكريا ورواياتهما المتداخلة للإسلاموفوبيا وكيف تعمل هذه الروايات على تطبيع السياسات المحلية والخارجية التي تستند إلى شيطنة المسلمين وتجريدتهم من صفات البشر، وتضفى على تلك السياسات قشرة من العقلانية. وفي نفس الوقت الذى كان كلينتون يفرض العقوبات المعوقة للحياة على العراق ويقوم باجتياح الصومال، ويقصف السودان وأفغانستان، دفع لويس بمفهوماً عن أسباب «حقن المسلمين» - وهو مفهوم مركزى كانت تستند إليه أعداد لا تحصى من مراكز الأبحاث الليبرالية واليمينية فى التسعينيات. وسرعان ما أصبح لويس أكاديمياً داخلياً لحركة المحافظين الجدد التى كان أفرادها قد التحموا فى تلك الفترة وجمعت هذه الحركة معاً متشددى الحرب الباردة، والصهاينة الأمريكين، واليمين الإنجيلي، والمحافظين الجدد المتطرفين. أمدهم لويس بحجة أخلاقية بعثت من جديد «المهمة الحضارية» التى كان الاستعمار الأوروبى قد ابتدعها، وذلك على شكل صيغة إلزامية ملحة تحدّد بوضوح ضرورة تزايد تدخل الولايات المتحدة عسكرياً واقتصادياً وسياسياً. ويلا ريب فإن رواج حجة لويس انبثق عن نفس الدافع القومى الذى دفع بـ «ثورة الجمهوريين» الأخلاقية إلى النجاح فى نفس الفترة.

وإذا كان لويس قد قام بتوفير السبب «النبيل» للسياسات الداخلية والخارجية القائمة على أساس الإسلاموفوبيا فقد قام زكريا بتبرير الضرورة السياسية لتقديم الإرشاد للعرب المسلمين والدفع بهم خارج «الاختلالات الوظيفية» التى تتسبب فيها ثقافتهم ومجتمعهم. دعم عمله بدوريتى الفورين أفيرز ونيوزيك دوره فى صفوف قيادات المفكرين المحافظين حيث تعاطت أعماله مع القضايا الداخلية والدولية. وإن كان لويس قد وفر القشرة الأخلاقية والفكرية للإسلاموفوبيا التى تفجرت فى أوساط التيار الرئيسى فى أعقاب ٩/١١، فقد وفر زكريا رواية صحفية «واقعية» توضح «لماذا يكرهنا» المسلمون. تضع كتابات زكريا مسألة الليبرلة [التحرير] الاقتصادية فى وسط المسرح، ويحسب ما يذهب إليه، فإن السبيل الوحيد لتقدم العرب وتحديث مجتمعاتهم (ويعنى بهذا تحرير التجارة والحريات المدنية وحقوق المرأة) هو أن

يعتمدوا أنظمة مستنيرة غير ليبرالية. وفيما سار «معلمه السابق» صمويل هنتنجتون على نهج لويس حينما طرح فكرة عدم اتساق الثقافة الإسلامية مع نظيرتها الغربية وتصارعهما وشيك الحدوث، قلب زكريا هذا النموذج المعيارى رأسا على عقب حيث يطالب بأن تتخذ الولايات المتحدة والغرب إجراءات سياسية واقتصادية وعسكرية تدخلية استباقية بما فى ذلك تغيير الأنظمة - من أجل «نشر» الديمقراطية وتعزيزها وتنفيذ «الإصلاحات». يرى أنه ينبغي أن تدفع تلك الإجراءات إلى السلطة بحكام مستبدين موالين لأمريكا، أو تخلفهم فى حالة تغيير الأنظمة، حكام يستطيعون إدخال تلك الإصلاحات الاقتصادية ومكافحة «الإرهاب الإسلامى»، حيث يرى أن التحرير [للبرلة] الاقتصادية سيأتي، فى نهاية المطاف، بالإصلاح السياسى الذاتى. وهكذا، أمد زكريا البيت الأبيض بالكثير الروايات وضوحا لتبرير «أجندة الحرية» أو مهمة فرض الحضارة.

### الذرائع الأكاديمية للإمبراطورية: برنارد لويس

كما رأينا، كان لويس المتحدث الأكاديمى لجماعة المحافظين الجدد. وذلك تحديدا بسبب رابطة البروفسور الوثيقة مع صهاينة واشنطن المتشددى فى ثمانينيات القرن الماضى وتسعينياته. فى مناسبة رعاها «مجلس الشؤون العالمية» أثنى ديك تشينى نائب الرئيس على لويس بصفته حكيما يسعى من فى السلطة لتوسل مشورته السيدة. قال تشينى «كتب لويس فى عام ١٩٩٠ «جنور غضب المسلمين وحنقهم» الذى تتبأ فيه بالأعمال الإرهابية التى وقعت فى ذلك العقد.» وفى قرننا الجديد هذا، يسعى صناع السياسة والديبلوماسيون وزملاؤه الأكاديميون، والعاملون بالإعلام الإخبارى، يوميا، إلى تلمس مشورته الحكيمة. وإلى جانب «مجلس الشؤون العالمية» رعا تلك المناسبة «صندوق پيو الخيرى» و«صندوق جلنميد»، وكان كلاهما يتبعان ملاك شركة صن للنفط. وإضافة إلى تشينى، وهزرى كسينجر وچودى وودراف من سى إن إن، وإيان هيرسى على من «المخبرين المحليين»، فقد حضر المناسبة جوزيف بايدن الذى أصبح نائبا للرئيس.

يعتبر مفهوم «غضب المسلمين» مجازاً ملائماً إذ إنه تفسير يحمل شكاواهم في «بيتة» صوتية واحدة بحيث يبدو استيواؤهم من الولايات المتحدة بغضاً عميقاً متأصلاً ورد فعل لا عقلانياً، مصدره أوجه قصور دينهم ومجتمعهم التي تحتمها ثقافتهم. ليست رواية لويس نظرية تأمر هامشية عفا عليها الزمن كان يتم تداولها في الدهاليز الضيقة لمراكز أبحاث المحافظين الجدد وفي عقولهم، ثم يعهد بها إلى إدارة بوش، بل إنه ومنذ وقت قريب، أى فى عام ٢٠١٠ أشار توم بروكاو إلى «جذور غضب المسلمين» بصفتها عقبة كئود تستدعى صياغة «نموذج معياري» جديد من جانب الولايات المتحدة لدى تعاطيها مع العالم الإسلامي. من السهل على المرء أن يفهم سبب جاذبية مقال لويس: «غضب المسلمين» لشخصيات على شاكلة ديك تشينى ومجموعته من دعاة الحروب ومدمنيها، فعلى حين لم يرد بالمقال ما هو جديد، إلا أنه أتاح لصناع سياسة القرن الحادى والعشرين أطروحات معيارية جدلية معادية للمسلمين جاهزة للاستخدام فى الهجوم عليهم، بل يمكننا القول إن المقال واستخداماته المغرضة يُعدّ نموذجاً لجدوى أعمال لويس فى صياغة سياسات الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، حيث لا تكمن فاعلية تلك الأعمال فى قيمتها الأكاديمية أو تحليلها الثاقب للمنطقة، بل فى قدرتها على إضفاء مظهر أكاديمى خادع على عدد من التوكيدات الاختزالية والتبسيطة بل والمتطرفة فى عنصريتها التى تسوغ الأجندة الأمريكية للتدخل السياسى والاقتصادى والعسكرى فى الشرق الأوسط.

يقول لويس، بأسلوب سلس بسيط، ونقاش تبسيطي، إن أسباب غضب المسلمين اللاعقلانية تنبثق عن «تلك الظاهرة الجديدة التى تعمل على إضفاء هالة من القدسية على العالم الثالث.. حيث يقال إن الشيطان [الأفعى] الغربى سلب براءة آدم وحواء اللاغريبيين وأفسدهما». لا يعتقد لويس أن أسباب «غضب» المسلمين من الولايات المتحدة تشمل دعمها غير المشروط لإسرائيل؛ ودعم واشنطن «المحدود» للأنظمة السلطوية وانتهاكات حقوق الإنسان، كما أنه لا يرى أن أصول هذا الغضب قد تكمن فى مخططات الغرب للاستيلاء على نطف المنطقة، ناهيك عن التاريخ الأطول

والأشمل للإمبريالية الأمريكية والأوروبية فى جنوب شرق آسيا وشمال إفريقيا، وكذلك أنشطتهما الاستعمارية الجديدة. بل إن لويس يرى أنه لا يحق للمسلمين الشكوى من الإمبريالية الغربية، ذلك لأن تاريخ الاستعمار الغربى كان يواكبه دائما مراجعة ذاتية تأملية حول حق مجتمعات الغرب الليبرالية فى استرقاق العالم، واستغلاله وقمعه. وبأسلوب عرضى خارج أى سياق تاريخي، يقول لويس إن المعضلة الأخلاقية المتأصلة فى الاستعمار الأوربي، لم يكن لها وجود أبدا فى تاريخ المسلمين الإمبريالي.

وهكذا يتيح تحليل لويس للمسؤولين الحكوميين، والمأجورين الأيديولوجيين تسويغا عقلا نيا أخلاقيا لسلب المسلمين حقهم فى التظلم التاريخى أو الحالى من الإمبريالية، والاستعمار الجديد، والهيمنة السياسية والاقتصادية الغربية. وفى مثال كلاسيكى على لوم الضحايا، يعيد النقاش توجيه أسباب غضب المسلمين إلى أوجه قصورهم الثقافى المزعوم، أى أن لويس يقول إن أصول غضب المسلمين وحقنهم تعود إلى مشاعر الاستياء والغيرة والعجز تجاه الغرب الناجح ويرى أن المسلمين، وبأسلوب جوهرى، أسرى شركاء أوجه قصور ثقافتهم التى تجعل من الحداثة شأنا يتعارض مع «العقل» الإسلامى. وليس هذا بالرأى الجديد إذ إن له أصوله فى إرث الاستشراق الطويل الذى يرجع تاريخه إلى إرنست رنان عميد المستشرقين المعادى للسامية. وإن كان رنان هو الاستشراقى المكتمل الذى أمد استعمار القرن التاسع عشر بالمسوغات الأكاديمية، فإن لويس هو داعية إسلاموقويا الدولة ما بعد الحداثى. يقوم بإعادة تشكيل إرث رنان الاستشراقى ليعمل على خدمة احتياجات ما بعد الحرب الباردة لصناع السياسة والمنظرين والسياسيين الذين ينشدون أساسا «أكاديمياً» لتصنيع سياسة أمريكية «استباقية» تخطط لمزيد من التدخل فى المشرق العربى. كما أنه يذهب إلى أن جذور مشكلة «العقل» الإسلامى لا تكمن فى جوهر ثقافات المسلمين جميعهم. ففى واقع الأمر، فلدنى صناعات السياسة من الحزبين حلفاء مسلمون يعتزون بهم مثل تركيا وماليزيا وإندونيسيا. وهكذا، لا يعود تخلف الإسلام والمجتمعات المسلمة إلى الإسلام ذاته بقدر ما يعود إلى أصوله فى ثقافته لأم، أى، الثقافة العربية.

يعتبر هذا النموذج الإثنوي/ الديني المعيارى مركزيا بالنسبة لأعمال أعداد لا تحصى من المنظرين المرشدين، والصحفيين، وأشباه الأكاديميين من أمثال زكريا، ورفائيل باناي، وتوماس فريدمان ودانييل باييس وغيرهم من «النجوم» الأقل مرتبة على غرار أيان هيرسى على ومارتن كرايمر وإرشاد منجي. وفى السنوات الأخيرة، استخدم صناع السياسة والاستراتيجيون فى إدارة أوباما النموذج الإثنوي/ دينى لإثارة المشاعر القومية الفارسية فى مواجهة الإسلاميين فى الداخل الإيراني. وفقا لهذه النظرية، فإن «العقلية» العربية هى التى تحدد هوية الإسلام السنى وتعمل الهيمنة العربية على الإسلام على تنامى التطرف فى الثقافات الإسلامية الحميدة بطبيعتها. يقول لويس، بإصرار، إن المجتمع العربى ظل على مدى التاريخ «معتادا على احتقار البرابرة الكفرة خارج تخوم الحضارة الإسلامية» كما يؤكد على أن المسلمين ظلوا على مدى التاريخ ومنذ ظهور الإسلام منذ أكثر من ألف عام، يزدرون «الغريبيين الكفرة» ويريدون غزوهم وإلحاق الهزيمة بهم. وعلى الرغم من أنهم أفادوا من إبداعات الغرب التكنولوجية، وبالذات فى مجال صناعة الأسلحة، إلا أن تلك الواردات الثقافية «لم يكن لها سوى قليل الأثر على مدركات المسلمين [عن الغرب] أو مواقفهم منه، هذا إن وجد مثل هذا «الأثر». وعلى مدى القرون، ظل المسلمون يحصلون على الأسلحة الغربية ويستخدمونها «دونما أى تعديل فى نظرتهم إلى الكفرة الذين حصلوا منهم على تلك الأسلحة». ويحسب لويس، فقد أتقن المسلمون استخدام التكنولوجيا الغربية وحققوا نجاحا كبيرا فى هذا، لكن هذا لم يرادفه تبنيهم الأفكار الإنسانية والديموقراطية للثقافة الأوروبية، ورأى أن «تبنى مخترعات الكفرة أو محاكاتها شأن، وتعلمهم من معلمهم الكفرة شأن آخر». تعمل مرجعية لويس كمتخصص فى تاريخ الشرق الأوسط على تشجيع التوجهات المتداولة حديثا بتلك الأفكار الاستشراقية الجازمة التى عفا عليها الزمن، مثلما يعمل وضعه المزعوم كأستاذ «ضليع» فى دراسات الشرق الأوسط على تحويل أفكار الإسلاموفوبيا العقيمة الارتكاسية إلى مسوغات أكاديمية لسياسة الولايات المتحدة التدخلية.

في التسعينيات تم توظيف مقولات لويس كطوق صلب ربطه عن كُتب بشبكة المحافظين الجدد من لاعبين وتنظيمات ومراكز أبحاث. وعلى النقيض من استخدام أوباما البرجماتي لـ «القوة الناعمة»، استخدم البيت الأبيض في عهد بوش «مصادقية» لويس الأكاديمية حجر زاوية لتسويق «أجندة الحرية أخلاقياً»، حيث كان لويس قد حول خلاصة الاستخدامات المجازية الاستشراقية القديمة إلى إسلاموفوبيا أيديولوجية تطورت لتصبح رواية بوجماتية إمبريالية نيوليبرالية وصهيونية استخدمت أداة لتنفيذ أجندة بوش الكوكبية. لكن، وعلاوة على ذلك، مضى صوته يدوي في جميع الوسائط الإعلامية للتيار السائد في رغبة جامحة منه لتبرير عدم ارتياحه الشخصي تجاه العالم الإسلامي وانزعاجه منه. أمدت آراء بروفيسور جامعة برينستون «الأكاديمية» الجازمة الجمهور الأمريكي والإعلام الأمريكي بدعامة أيديولوجية تسوغ هيمنة بلدهم الكوكبية في العالم أحادي القطب. بتعبير آخر، وفرت تعاليم لويس للخطاب العام تحليلاً سهلاً مهنياً يعمل على حرف الأبصار عن مغبات سياسة الولايات المتحدة المستدامة في الشرق الأوسط التي عملت على توليد مزيد من المشاعر المعادية لأمريكا، وأتاحت أيضاً للتيار السائد تسويق رغباتهم للتحكم في الشرق الأوسط. من المؤهل لانتزاع الشرق الأوسط خارج سياقاته التاريخية أكثر من ذلك «الأكاديمي» ندى المكانة الراسخة؟ مكنت تلك المكانة لويس من إغفال جميع عوامل التاريخ والمجتمع والثقافة والاقتصاد والسياسة والدين والتي شكل جوهرها خبرة المنطقة بالاستعمار وإغراق المنطقة في النظام الرأسمالي، وظهور الحركات القومية المحلية أو الإقليمية، وكذلك الحركات الاشتراكية وقياداتها؛ ومغبات الحركة الصهيونية والصهاينة على الفلسطينيين والمنطقة، وكيفية تشكل التضاريس السياسية والاجتماعية الحديثة في البلدان العربية من خلال ضغوط الحرب الباردة وعواقبها من دفع وجذب. علاوة على ذلك، غدا بإمكان لويس إغفال قرنين من تعاطي البلاد العربية مع الحداثة حيث يقول إنه «بالرغم من كل الجهود، وبالرغم من إنشاء المدارس، وكليات العلوم في جميع الجامعات تقريبا، فإن استيعاب العلوم الحديثة كان بطيئاً بشكل مؤسف كارثي».

يفسر لويس هذا التقدم الذى لا يكاد يذكر برواية اختزالية بالغة التبسيط حيث يذهب إلى أنه من المستحيل إحداث تغير ثقافى ونفسى وذلك لأن العرب لا يستطيعون مواجهة «الإجابات الحضارية والثقافية» عن الأسئلة والتحديات التى طرحتها الحداثة. كان ذلك الرأى الجازم هو الإسهام الأكثر قيمة فى الأيديولوجيا التى تدعم حجج سياسات الولايات المتحدة الإمبريالية فى الشرق الأوسط، من بين كل ما ألفه من كتب وما كتبه من مقالات وافتتاحيات صحفية.

وعلى غرار أمثلة رنان، فإن المقصد الدُعوى المسيس لأعمال لويس يختزل الأخرية المطلقة للعقل العربي/ الإسلامى فى جوهر «مزعوم». لكن، بالنسبة لأعماله ما بعد الحداثية وما بعد الحرب الباردة، يحدد لويس سياق تلك «الأخرية» بعلاقتها بحداثة الغرب التى تروج لـ «مجتمعها المدني» العلمانى الديمقراطى نموذجاً لمجموعة معلومة من البلدان. ظل لويس دائماً يكن ألفة ومودة للنظم المسلمة السلطوية «المتغريئة» وبخاصة للنظام التركى الذى يرى أنه حقق التقدم على الرغم من الإسلام وعلى الرغم من جذور هذا الدين فى الثقافة العربية. ظل لويس داعماً طوال حياته للكفالية [الأتاتوركية]؛ وبدلاً من أن يسائل ذلك النموذج التركى الذى يتبنى «الحداثة» ويتأقلم معها يجد من الأسهل أن ينكر، بصوت مفعّوه، مذابح الأرمن، أو يعارض حقوق الأكراد فى تقرير المصير. يرى لويس أن تركيا نجحت فى احتواء الإسلام داخل أطر علمانية مدنية محددة، وبذلك أتاحت الفرصة للحداثة لأن تتجذر وتزدهر. كانت عدم ملائمة العقل الإسلامى للمفاهيم الحديثة [الغربية] عن الذات والمجتمع والحداثة بشكل كلى وكامل جوهر مقال «الغضب الإسلامى» للويس، المقال المفضل لدى تشيى، والذى استمد منه صمويل هنتجتون تعبيره الأكثر شهرة، حيث يقول لويس فى ذلك المقال «إن هذا يرقى لأن يكون صداماً للحضارات، رد الفعل اللاعقلانى ربما، والتاريخى يقينا من منافس قديم على مورثنا اليهودي/ المسيحى وحاضرنا العلمانى وعلى انتشار كليهما فى أنحاء العالم».

من ثم، لا ترجع أهمية أعمال لويس إلى فحواها المبتكرة، بل تكمن فاعليتها فى قدرتها على إعادة قولبة المجازات الاستشراقية الجديدة فى صورة نماذج معيارية

جديدة مشبعة بالإسلاموفوبيا تتوأم مع زمن العولة ووسطوة الولايات المتحدة فيه. وفيما قام لويس في التسعينيات بإدماج الإسلاموفوبيا في الرؤية السياسية لحركة المحافظين الجدد، فقد قام أيضا بتوضيح ضرورات استخدام قوة القطب الأحادي لصناع السياسة. علاوة على ذلك، فقد وجدت أطروحات لويس الثقافية أصداء لها في اللاوعى العنصرى للأمريكين البيض باستغلال مخاوفهم من اندماج العالم الإسلامى الأسمر [غير الأبيض] فى النظام الكوكبي. ومع أخذ هذا فى الاعتبار، يمكن أن نفهم بسهولة كيف أصبح الرد على الغضب الإسلامى الأولوية السياسية فى نظر التيار السائد الأمريكى. للعالم العربى وإيران. بتعبير آخر، فإن تبنى هنتنجتون فى كتابه الشهير لمصطلح «صدام الحضارات» الذى ابتدعه لويس سيتم تقييمه كوثيقة شاهدة على لحظة تاريخية لعب فيها لويس دورا تثقيفيا بأكثر من النظر إلى الكتاب على أنه كتاب عنصرى ملئ بالأضاليل والأطروحات المغرضة. أى أن أعمال لويس «الأكاديمية» فى التسعينيات أصبحت دالة على الحاجة إلى إعادة تشكيل أيديولوجى لوزارتى الخارجية والدفاع فى زمن ما بعد الحرب الباردة. لم يخترع لويس فكرة أن العقل العربى نقيض للعقل الغربى العلماني، إلا أنه نجح فى التسعينيات فى توليد استراتيجية سياسية كان لها أن تزهر أزهارا سامة كان من المفترض لها أن تنتثر لدى أقدام قوات التحرير الأمريكية فى كابول وبغداد فى زمن بوش.

#### [مضحك] الدراسات الأكاديمية الأيديولوجية:

لابد من وضع تمسك لويس بالإسلاموفوبيا ما بعد الحداثى التى أسهم فى تصنيعها فى سياقها. فى واقع الأمر، فعلى حين أنه ظل صهيونيا طوال حياته، إلا أن أنشطته السابقة كانت مختلفة عن أجندة ما بعد الحرب الباردة التى دفع بها فى التسعينيات وبداية الألفية الجديدة، بل إن أيديولوجيا الإسلاموفوبيا التى اعتنقها كانت تتناقض مع رؤيته السابقة الاستشراقية والعنصرية أيضا لدور الولايات المتحدة فى العالم الإسلامى. أثناء الحرب الباردة، شجع لويس غرس الإسلام السياسى ورعايته لمجابهة سلطة السوفييت وانتشار الشيوعية العلمانية فى جنوب غرب آسيا

ووسطها. وتحديداً، فقد عُرف عن لويس أنه أطلق مع برجنسكي في السبعينيات استراتيجية جديدة معادية للشيوعية حيث أكد على أنه ينبغي على الولايات المتحدة رعاية الأصوليين الإسلاميين في أنحاء آسيا الوسطى وذلك من أجل استيلاء مشاعر معادية للسوفييت، وكان أن أصبح «قوس الإسلام»، الجنوبي هذا، «قوس الأزمة» بالنسبة للسوفييت، علاوة على ذلك، وبحسب ما أصبح يُعرف فيما بعد باسم «خطة برنارد لويس»، كان على الولايات المتحدة التخلي عن دعمها للشاه، وأن تدعم بدلا من ذلك ناشطى الإسلام السياسى بالداخل الإيراني.

كان مصدر دعم الرئيس كارتر، وويليام كيسى مدير السى أى إيه وبرجنسكى للتيارات الإسلامية، وللمقاتلين الإسلاميين، وبخاصة فى أفغانستان هو ذلك التكافل الثقافي/ الأيديولوجي. كان لمنحنى الأزمة الذى ابتدعه لويس/ برجنسكى أن يعمل على تقويض أساسات المعارضة اليسارية القوية بالداخل الإيراني وأيضا أن يضع الولايات المتحدة فى وضع مُميّز لتصدير الأصولية الإسلامية المعادية للشيوعية إلى وسط آسيا، حيث تم النظر للأصولية الإسلامية بصفتها وسيلة فاعلة لاحتواء انتشار الشيوعية بالمنطقة بما فى ذلك فى أفغانستان حيث كان لحزب الشعب الديمقراطى الأفغانى، فى السبعينيات دعم شعبى واسع النطاق. بعد أن وصل ذلك الحزب إلى السلطة فى السبعينيات، عمل على إدماج النساء فى المجتمع المدنى بشكل كامل وحظر ارتداء البرقع والزيجات الإجبارية، وأطلق برنامجا للتنمية يفيد البلاد بأكملها. بيد أن خطة برجنسكي/ لويس كانت تدعم بقوة اللوردات الإقطاعيين والمجاهدين «الإسلاميين» فى أفغانستان حتى قبل الغزو السوفييتى عام ١٩٧٩، وكان لها استراتيجية تساعد فيها باكستان على تقويض حكومة كابول العلمانية الثورية المناهضة للإقطاع.

وعلى حين أن إسهام لويس فى تشكيل الجماعات الإسلامية المتطرفة، وتقويتها وانتشارها قد تم نسيانه بأسلوب ملائم مريح، فقد ثبت أن إسهامه فى تشكيل نماذج كراهية الإسلام السائدة أطول عمرا وأكثر تأثيرا بكثير. فعلى حين أن أوياما

قد تخطى إلى حد كبير عن ذلك النموذج، إلا أن نظرية لويس عن صدام الحضارات وتحليلاته مازالت تجد طريقها بدرجة لافتة في الإعلام والتيار السائد. وإن كان لويس قد ابتعد عن الأضواء في عهد أوياما، فمازال فؤاد عجمي يدعو إلى نموذج «صدام الحضارات» بحماس كبير، كما تقضح مقالاته في دورية نيويورك تايمز بوبوك ريشيو التي تجزم بأهمية تلك الصياغة التي استلهمها هنتنجتون من لويس. يستند مثل هذا الخطاب «الحضاراتي» إلى الاختلافات الثقافية، العدائية التي تفصل العقل العربي/الإسلامي عن العقل الغربي ذي التوجهات الإنسانية، وهذا الخطاب الذي تفصل به لويس بكل مرونة وسيولة هو نتاج مائتي عام من الدراسات الاستشراقية. تفحص إدوارد سعيد الكيفية التي ظل بها هذا الخطاب ذاته يتخلل جميع الدراسات الغربية عن «الشرق» طوال قرنين من الزمان. وفي واقع الأمر، فقد تعاطى سعيد مع لويس في عدة مناظرات عامة في الثمانينيات، وكشفه من خلالها بصفته تجسيدا الأكثر أوجه الاستشراق سوءاً، وفضح افتقاده لسعة الاطلاع والتعقيدات التي تميز هذا الموروث. وحقاً، فإلى جانب أوجه قصوره العديدة، فإن أعمال لويس تفتقد الصرامة الأكاديمية، والتحليل النصي المحكم الذي يميز مناهج البحث على أساس من فقه اللغة والتي تبنها الاستشراق. ولا تتمثل مشكلة لويس في أنه ليس استشراقياً متفقاً فقط، بل في أنه استشراقى رديء. وفي واقع الأمر، فإن ذلك التبسيط، وتلك الفجاجة الأكاديمية هما تحديداً سبب وجود أتباع كثيرين له في دوائر صناعة السياسة وإعلام التيار السائد.

#### مهمة نشر المدنية ما بعد الحداثية:

تتيح الزاوية الحضاراتية - طرح ثنائية التمايز بين الإسلام، والغرب- للويس وأتباعه فرصة لإغفال قرنين من التغيرات الدينامية الاجتماعية والسياسية والثقافية في العالم العربي، مثلما يبرئ خطاب صراع الحضارات بوضوح الغرب من أية مسؤولية عن الأوضاع السياسية والاقتصادية في العالم الإسلامي. علاوة على ذلك، يجد القراء، والمناصرون لتلك الرؤية من السهل تخطى الحاجة إلى التفحص

المتأني للحركات والتنظيمات والفنانين والمثقفين والنشطاء الذين تعاطوا مع الحداثة بأساليب معقدة، فيما مضوا أيضا يتحدون الأشكال المتنوعة من الإمبريالية الغربية، والاستعمار والرأسمالية ويشتبكون معها منذ القرن التاسع عشر وحتى الآن. وحقا، فإن هذا المستشرق يقول عن خطأ إنه لا يوجد من بين هؤلاء المثقفين أو تلك الحركات من سامل «تلك التمايزات الثلاثة المقدسة التي ترسخ المكانة المتدنية للعبيد والنساء والكفرة». تعاود هذه التيمة الظهور في أعمال لويس بهدف إظهار العرب أناسا غير أسوياء يعانون من رغبة فطرية في الهيمنة على الآخرين، ويتضاعف الميل إلى العنف المتأصل في هذه الرغبة نتيجة الإحباط الناجم عن عدم القدرة المستدامة على النجاح في الهيمنة الثقافية على الآخرين. ويتحديد أكثر، يقول لويس، إن الثقافة العربية يعترها القلق الحاد إزاء تفوق الغرب للإسلامي والحقق على هذا التفوق، ومن ثم يضيف قائلا: إنه «ومنذ وقت طويل ظل هناك تيار متصاعد من التمرد ضد هذا التفوق الغربي ومكانته، ورغبة في إعادة ترسيخ القيم الإسلامية واستعادة مجد المسلمين»، ويرى أن لهذا تضمينات خطيرة من بينها «أن الشر الحقيقي غير المقبول هو هيمنة الكفرة على المؤمنين الحق». ونحن نشهد هنا جوهر أعمال لويس، وتفسيرا لهاجسه المرضى بالجهاد.

وحسب ما يذهب إليه لويس فإن «الجهاد» هو الرد الطبيعي للمسلمين على هيمنة الغرب الكوكبية. تُردّد كتاباته بعد ٩/١١، مثل كتابه «من بابل إلى الترجمان» هذه التفسيرات، حيث تحدد المشكلة، على أنها سمة دينية/ إنثنية وليست ظاهرة سياسية تاريخية. فإن كان العنف وإخضاع الآخرين خاصيات ثقافية متعضونة في نظرة المسلمين والعرب إلى العالم، تصبح الحرب إذن، في عصر صراع الحضارات هذا، ليست مجرد أمر يمكن تطبيقه عمليا، بل مسئولية أخلاقية. وسيعاود مفهوم الضرورة الأخلاقية التي تجبر الولايات المتحدة على تنفيذ «حرب على الإرهاب» الظهور بعد ذلك في جميع أعمال منظري الإسلاموفوبيا وتحليلاتهم. لكن اللافت بدرجة أكبر هو أن الحجة «الأخلاقية» كانت متوافقة تماما مع مفهوم بوش المخادع عن الدبلوماسية

التي بمقتضاها تشن القوة الإمبريالية حربا من أجل فرض السلام. وبناء على ذلك، كان لويس فى لقاءاته على العشاء سرا مع تشينى فى أعقاب ٩/١١ يحثه بقوة على شن حرب ضد المسلمين، ليس بدافع القلق من وجود أسلحة دمار شامل، بل، وكما أكد لويس لثائب الرئيس، لأن أمريكا بهذا تقاتل حضارة مريضة ينبغي عليها أن تهزمها حتى تستسلم. من ثم، فقد حث تشينى على أنه ينبغي على الولايات المتحدة «المضى قدما دونما تردد».

تمكن لويس، حرفياً، من السيطرة على أسمع أقوى شخصيات الدولة حيث أدمهم بخطاب حضاراتى أتاح للولايات المتحدة إخفاء سياساتها التخيلية تحت عباءة أخلاقية بحيث تعيد هذه الضرورة الأخلاقية قولبة هذه «المهمة الحضارية» وتجعل منها سياسة خارجية قابلة للتطبيق فى القرن الحادى والعشرين، والتي بدورها تمد مبادئ العولة الاقتصادية والسياسية وأهدافها وآلياتها بدعائمها الرئيسية. أيضا، تُستخدم نغمة الخطاب الحضاراتى الأخلاقية تلك لتوحيد مختلف الأطراف، وهو تأثير مازال يمارس حتى بعد سنوات بوش، حيث نجحت النغمة الأخلاقية التي استخدمت فى الدعاية لـ «الحرب على الإرهاب» فى توحيد الفصائل المتنافسة فى الحياة السياسية. بل وفى المجتمع المدنى بالولايات المتحدة. مثلا، نجحت مسألة قمع النساء فى الإسلام، وكما سنرى لاحقا، فى حشد أعضاء الحزب الديموقراطى الليبرالى، والحركات النسوية، الذين اتفقت آراؤهم مع المحافظين الجدد من الحزب الجمهورى، ومع الحركات الإنجيلية. وهكذا توحد الرجال والنساء من الطرفين «النقيضين» على رفض قبول الممارسات «غير الليبرالية» و«المتخلفة» فى البلاد العربية— وبخاصة تلك البلاد غير المتحالفة مع الولايات المتحدة. يفسر هذا المنبر المشترك، الذى يتشارك فى موقف حضاراتى وأخلاقى واحد، سبب توافق معهد واشنطنون لسياسة الشرق الأدنى، أو معهد بروكينز والذين يهيمن عليهما الديموقراطيون، على نفس الآراء التى يتبناها نى أمريكان إنتربرايز إنستيتيوت، وغالبية من المحافظين الجدد، حول تدخل الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط.

ليست النظرية الحضاراتية الأخلاقية مجرد نظرية لا تمارس على أرض الواقع، أو تنحصر في دائرة صغيرة من المنظرين وذوى العقائد المثالية. إن آراء لويس عن الإسلام أبوكالية [تتناغم مع ما جاء بسفر الرؤية] لذا تجد لها أصداء لدى الإنجليين وتتوافق مع النظرة السائدة بالولايات المتحدة عن الشرق الأوسط، حيث إنه طرح سياسة الولايات المتحدة بصفتها معركة معادية حتمية بين الشرق والغرب، معركة تحتمها المبادئ الحصرية المتناقضة التي يتبناها كل منهما. يقوم إعلام التيار السائد الأمريكي ببث هذا التحليل في جميع الأنحاء إلى حد تشبع الجماهير به، بعد صياغته بأسلوب يجعله يبدو وأنه تفسير عقلاني لسؤال «لماذا يكرهوننا؟». كان لويس مصدر كل استشهاد مرجعي استخدمه جميع المنظرين والسياسيين ممن قرعوا طبول الحرب في أعقاب ٩/١١. لم تكن الذريعة التي استخدمت لتسويق «تغيير الأنظمة» لتحظى بإجماع كامل إن لم تكن قائمة على أساس حافز أخلاقي لاربيب فيه، وهنا أمد لويس البيت الأبيض برئاسة بوش بالخطاب الحضاراتي الذي يمكن له أن يشكل الأساس الأخلاقي للحرب على الإرهاب «المجيدة»، والتي يمكن لها أن تكون حرباً «كلية» تشمل منظومة من الحروب الفرعية مثل غزو أفغانستان، و«تحرير» العراق، والحرب الداخلية وذلك لأنها حرب من أجل البقاء، حرب ضرورة، وحرب إلزام أخلاقي.

وفيما أكد لنا بوش أنها ليست حرباً على جميع المسلمين، مضى لويس يمدنا بالحجج الأكاديمية ويؤكد لنا أنها يجب أن تكون حرباً على المسلمين جميعهم. لم تركز الأطروحة التي شكلت أساس حرب بوش، على أسامة بن لادن بصفتها مسلماً ضالاً منحرفاً، على الرغم من أن بوش، وتشيني ورايس كانوا يقولون هذا أحياناً في خطاباتهم إلى التيار السائد، الأخرى أن التركيز كان على مسلمي التيار السائد وثقافتهم وعقائدهم المنافية، بل والمعادية له القيم الأمريكية». يضم هذا أنه لا يمكن النظر إلى غزو أفغانستان والعراق كعمليات معزولة مفردة، بل على أنها تشكل جزءاً من «حرب صليبية» أوسع، إذ إن هاتين الحربين وحدهما لن تجديا في مجابهة الانتشار الفيروسي للإسلام القتالي. بعد ٩/١١، مضى لويس يذكر المرة

تلو الأخرى أن ٩/١١ كانت مجرد «إطلاق النار الاستهلاكي في المعركة الأخيرة» بين الإسلام والعالم المسيحي، من ثم، ينبغي أن يكون الرد حرباً على الإرهاب الكوكبي، متواصلة، ومستدامة وأكثر عنفاً، حرباً أهدافها ذات أهمية مركزية بالنسبة «لقيمنا الديموقراطية الجهورية ولأسلوب حياتنا». وعلى حين أن البيت الأبيض برئاسة بوش، مثل البيت الأبيض برئاسة أوباما، مضى يطمئن المسلمين ويؤكد لهم أن الولايات المتحدة لا تخوض «حرباً ضد الإسلام» فإن البيانات الواضحة لمن في البيت الأبيض، وسياساتهم اتبعت وصفات لويس بأنه ينبغي أن تتضمن الحرب على الإرهاب بالضرورة إعادة تشكيل شاملة للعالم الإسلامي، وإعادة تحديد للعلاقة بين واشنطن والبلاد العربية. وفي حالة عدم إعادة رسم الحدود كما كان لويس قد اقترح في الماضي يجب إجبار العرب على القيام بإصلاحات رغماً عنهم كي يتم قبولهم في مجتمع الأمم المتحضرة.

وفيما أن لويس ليس على ونام مع إدارة أوباما، فما زال مستمراً في الدعوة إلى ممارسة ديبلوماسية القوة في الشرق الأوسط بما في ذلك إيران، حيث يدعو هو وتلميذه ريويل مارك جرتشت الذي عمل جاسوساً بإيران ثم تحول ليصبح محللاً سياسياً، يدعو إلى رد فعلٍ عسكري ضد أحمدى نجاد وبرنامج إيران النووي المزعوم. وفي واقع الأمر، فقد برز لويس، في السياق الإيراني، شن حرب صليبية كرد فعل أخلاقي على التوجهات التوسعية الإسلامية، وكان قد ألقى هذا الخطاب بالأمريكان إنتربرايز إنستيتيوت لدى تسلمه جائزة إرفينج كريستول في حضور ديك تشيني وجون بولتون و«سكوتر» لبيبي، وريتشارد بيرل. يوضح هذا الخطاب كيف تسمع مكانة لويس الأكاديمية له بالجهر بآراء جازمة ذات منطق خادع مضلل، آراء لو صدرت عن غيره لاستنكرها على الفور الخبراء الأكاديميون وأفقدها مصداقيتها. ويمحاكاته مروجي الذعر المعادين للسامية، مضى لويس يصور المسلمين، في الماضي والحاضر، على أنهم ظلوا يسعون للسيطرة على العالم. قام، وهو يقوض اللحظات التاريخية ويطمسها، بربط إيران بالحركة الوهابية الأصولية ومبادئها، حيث يذكر

أن أحمدي نجاد لديه «رؤى أبوكالية عن الإسلام» ويحذر جمهوره من أن لهذا الشكل من التطرف الإسلامي - هذا على الرغم من معتقدات أحمدي نجاد الشيعية وتمسكه بالقومية الإيرانية - جذوره في الوهابية السعودية التي تعتبر أكثر الدعوات الإسلامية تشدداً وعنفاً وتعصبا والتي كان قد أسسها محمد بن عبد الوهاب في القرن الثامن عشر وتبنتها الحكومة السعودية مذهباً دعمته الثروة النفطية غير المحدودة. ثم يمضى جازماً فيقول إن «الوهابية بالنسبة للإسلام، تماثل الكوكوكس كلان بالنسبة للمسيحية».

ويأسلوب لويس الكلاسيكي المعهود، يطرح حجته بحيث يستطيع القول بكل حسم إن الولايات المتحدة تتحمل مسئولية مواجهة أحمدي نجاد و«طموحه النووي» قبل أن يترك الإسلام بوابات فئينا مرة أخرى. يترك هذا التحليل للولايات المتحدة خياراً وحيداً قابلاً للتطبيق، خياراً قوياً وأخلاقياً، يقتضى منها الاستمرار في «القمع» الفاعل للتطرف الإسلامي في الداخل الأمريكي كما في الخارج، ومواجهته عسكرياً إذا اقتضى الأمر. وفي نفس اليوم الذي ألقى فيه لويس خطابه ومُنح جائزته، بثت البي بي نتانج «استطلاع للرأي» أجرته بين العراقيين حيث أيد غالبية المدنيين العراقيين شن الهجمات على قوات «التحالف» فيما عارض ٩٤٪ منهم أعمال العنف الطائفية. وبما أن هذا كان هو الوقت الذي جرى فيه انتشار مزيد من القوات الأمريكية «المتدفقة» على العراق رأى حوالى نصف العراقيين المستطلعين البالغ عددهم ألفين أنه كلما زادت الولايات المتحدة من عدد قواتها المنتشرة فستزيد أعمال العنف التي يتعرض لها المدنيون.

### اصناف الحصار: فريد زكريا

استشهد أفراد مجموعة «الخبراء» الذين تداولوا لعب الأدوار في دوائر واشنطن بأعمال لويس التي شكلت بالنسبة لهم رواية رئيسية يستشهدون بها على عدم كفاءة المسلمين ويريريتهم وحنقهم العدائى تجاه الغرب. وإذا كانت كتابات لويس لم تظهر في الوسائط الإعلامية اليومية للتيار السائد، فإن اسمه كان هو المرجعية المصدقة

التي استند إليها كبار المتحدثين، والصحفيون، والمنظرون في تنفيذ حملتهم ضد المسلمين. كان يتم تداول ناشطى المرتبة الثانية بين مراكز الأبحاث والبيت الأبيض ووزارة الدفاع، والأمن الداخلي، والخارجية كى يمدوا المسؤولين ببعد حضاراتى للحرب على الإرهاب و«أجندة الحرية»، ثم يتم بث خطابهم بين صفوف صغار مثبىرى الرأى العام ورجال الإعلام المأجورين من خلال المناقذ الإعلامية المحلية والقومية. تقول الرواية إن أصول «الخطر الأخضر» ترجع إلى المدارس الدينية السعودية، أما فى الداخل فإنه يتمثل بنفس القدر فى التنظيمات الخيرية والدعوية مثل مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية CAIR، والذي يعتبره الكثيرون طابورا إسلاميا خامسا فى الولايات المتحدة. كانت هذه الرواية الأداة الأكثر قوة وفاعلية لتبرير عسكرة السياسة الداخلية والخارجية أمام جمهور أمريكى كان يشعر بالصدمة والمرارة والرغبة فى الانتقام بعد ٩/١١.

وفيما كان لويس معلم التيار السائد حول الإلزام الأخلاقى الكامن فى قلب الخطاب الحضاراتى، كان فريد زكريا هو من عبر عن الرواية السياسية لـ «الحرب على الإرهاب» باكبر درجة من الوضوح والإيجاز، وسوقها داخليا وعالميا. فإلى جانب شعبيته فى دوائر المحافظين الجدد، فقد حطقت شهرته عاليا فى أوساط التيار السائد فى أعقاب ٩/١١ بعد نشر مقاله الشهير «لماذا يكرهوننا؟» الذى دائما ما يتم الإحالة إليه والذي يعتبر نصًا تكوينيا فى مجمل الأعمال المعادية للمسلمين والتي بدأها لويس بمقاله «جذور الحنق الإسلامى». يظل مقال فريد زكريا، بالنسبة للإعلام ودوائر واشنطن الداخلية فى فترة ما بعد ٩/١١، التحليل الأكثر أهمية بدرجة بحيث يغطى على محاولات التقارب مع «المسلمين المعتدلين» بعد رئاسة بوش. بدلا من أن يسأل عن سبب غضب المسلمين الدائم، فإنه يسأل «لماذا يكرهوننا؟» و«لماذا ينبغى أن نهتم؟». ظهرت سلسلة مقالاته فى عدد أكتوبر ٢٠٠١ من مجلة النيوزويك فيما كانت الرضوض النفسية لأحداث ٩/١١ مازالت غضة، ثم تم إعادة طبعها ومعها مقال «كيفية إنقاذ العالم العربى» فى كتاب له بعنوان «مستقبل الحرية». ولّد مقال «كيفية

إنقاذ العالم العربي» ردود فعل واسعة في العالم العربي تراوحت بين قبول عام لأفكاره من جانب النيوليبراليين، إلى اشتباك نقدي مع آرائه من جانب المثقفين، إلى إشارات هجومية ساخرة إليها في أغاني المطرب الشعبي شعبان عبدالرحيم.

وبالتقابل مع المنظرين، ومع الصحفيين المشاركين في الحملة المسعورة المعادية للإسلام، فإن زكريا ليس مأجوراً أو إمعة تابعا للبيت الأبيض، فقد برهن على أنه لاعب ذكي حصيف، ملتزم دوجماتيا بالتوجهات النيوليبرالية بأكثر من التزامه بالأفكار الخشبية لحركة المحافظين الجدد، هجين يجمع بين الأيديولوجيا النيوليبرالية والمبادئ المحافظة القديمة، وهو أيضا نتاج لمدرسة السياسة الواقعية للحرب الباردة والبرجماتية السياسية. عملت تعليقاته بالنيوزويك على تأييد صناع السياسة والسياسيين والقراء لها لمدة عقد من الزمان، من ثم، ضمن له ذكاؤه وحصافته وظهوره التليفزيوني النجاح في فترة ما بعد بوش. وفي واقع الأمر فقد سهلت المرونة التي تميزت بها برجماتية زكريا السياسية له التخلص من كثير من آرائه التي كان قد تبناها سابقا عن العالم الإسلامي، وتبنى آراء أخرى في عصر أوباما ويعد أن أصبح وجهها تليفزيونيا مالوفاً ذا شعبية. لكن هذا الكتاب لن يناقش آراء زكريا المعدلة في برامج السى إن إن، حيث إن كتاباته المؤثرة أثناء سنوات بوش أكثر أهمية بدرجة أنها وجهت طموحات الولايات المتحدة في تلك السنوات، كما أنها عبرت عن رواية الإسلاموفوبيا البرجماتية حول المجتمع المدني المسلم وسياساته، تلك الرواية التي تعاضمت شعبيتها بمرور السنوات.

نشأ زكريا في الهند ابنا للطبقة العلمانية الاقتصادية والسياسية الحاكمة، وهو مسلم اسميا فقط، وهذا النسب النخبوي وما يصاحبه من مكانة سياسية أمر يآلفه من قضى وقتا في العالم النامي. وزكريا نتاج الطبقة البرجوازية الهندية التي تدعو للسياسات الاقتصادية النيوليبرالية وتستغلها وتستفيد منها، وتتبنها بصفتها أفضل وسيلة للتنمية والنمو الرأسماليين. لم يتغير إيمان زكريا في زمن أوباما بالطبيعة المسيانية [الدينية] للنيوليبرالية، أما أثناء سنوات بوش فقد توأمت تلك

النظرة بسهولة مع أفكار كونداليزا رايس وسياساتها، بحيث عثر زكريا، فى شخص رايس، على توم روحه. فالاثنتان شخصان نيوليبراليان و«مثققان» من غير البيض، يتحدثان بنكاء ووضوح بلسان السلطة فيما يخفيان انتهازيتهما. تأثر كلاهما، وهما المعاديان للشبيوعية ومن صقور الحرب الباردة سابقا، بصمويل هنتجتون وجوزيف كوريل ويؤمنان بـ«الرسالة الديموقراطية» كأساس لشرعنة سياسة الولايات المتحدة الخارجية فى العالم النامي.

وكوزيرة للخارجية، ومستشارة للأمن القومي، كثيرا ما كانت رايس تستشهد بكتاب «لماذا يكرهوننا؟»، هذا على الرغم من أن الكتاب المذكور لا يعدو كونه مقال رأى تم توسيعه، لكن رايس، والرئيس، ومعهم صناع السياسة والصحفيون روجوا له كبحث إمبريقى مرجعى يشكل أساسا للسياسة الخارجية الأمريكية. كثيرا ما أشارت فى أحاديثها إلى «مقال نيوزويك الشهير الذى ظهر عنوانه على الغلاف وكتبه صديقى فريد زكريا»، وكانت تقول «فى أعقاب ٩/١١ مباشرة، تسامل أمريكيون كثيرون «لماذا يكرهوننا» وتحليل زكريا يساعد على الإجابة عن هذا السؤال. اعتاد الرئيس بوش، ورايس، وتشينى الاستشهاد مرارا وتكرارا وإلى ما لا نهاية بالجزء من مقدمة زكريا حيث يقول «يكره المتطرفون فى العالم الإسلامى أمريكا وسيظلون يكرهونها دوما. يكرهون سياساتنا، قيمنا، حرياتنا، بل أسلوب حياتنا ذاته. وحينما يتم التعبير عن الكراهية من خلال أعمال العنف، فليس ثمة سوى رد ملائم واحد...». ثم تمضى رايس لتقول إن مدركات المسلمين المقلوبة عن أمريكا «تخلق مناخا من المرارة والشعور بالظلم يجد فيه التطرف أذانا مصغية متعاطفة. وبإستطاعة مثل تلك الآراء أن تُبقى مجتمعات كاملة أسرى أيديولوجيات فاشلة، الأمر الذى ينجم عنه، بالنسبة للعالم الإسلامى، التخلف والفقير الدائم وغياب الحريات. علينا أن نوصل الحقيقة عن قيمنا وسياساتنا إلى شعوب الشرق الأوسط. ومثلما أن الحرية ينبغى دائما أن تكون أمرا يختاره الناس، فإن التقدم الدائم، وإصلاح المجتمعات يجب أن ينبثق من داخلها».

تلخص مقولة رايس بإيجاز روح مقال زكريا، ذلك لأنه يرى، على خلاف لويس، أن التطرف ليس متأصلا في الإسلام أو المسلمين، وأن «المشكلة التي يعاني منها الإسلام» تكمن تحديدا في الثقافة العربية وعقلية العرب المتأصلة والتي انتشرت إلى المسلمين من غير العرب. بعد ١١ سبتمبر، صاغ زكريا السؤال المفتاح للإعلام وصناع السياسة: «ما السبب في أن هذه المنطقة هي العاجزة سياسيا في العالم؟ المجموعة الشاردة عن مسيرة المجتمع الحديث؟» وحسب رأيه، لا تقتضى معرفة الإجابة عن هذا السؤال سوى النظر إلى الثقافة العربية، إذ إتنا فقط حينما ننظر إلى الشرق الأوسط العربي «نرى بأنوان متوهجة منذرة جميع الإخفاقات الوظيفية التي يستدعيها الناس حينما يتحدثون عن الإسلام»، وعلى سبيل المثال قال موضحا إن «أفغانستان كانت أرض المعسكرات التي منها انطلق جيش عربي لقتال أمريكا». يرى زكريا أن العرب متخلفون قبيليون أبويون يفتقدون النقد الذاتي ويفاخرون بثقافتهم التي كانت مجيدة يوما ما وغدت الآن فاشلة. تحول تلك السمات الثقافية دون «التقدم» الحق. ثم يمضى زكريا يقول جازما «إذا كان ثمة سبب واحد رئيسي للأصولية الإسلامية فهو ينحصر في الفشل الكلى للمؤسسات السياسية في العالم العربي»، ويرى أن هذا الفشل متجذر في عدم قدرة العرب على فهم «الحدثة» وأن «تجربة» الحدثة بالنسبة للعرب انتهت بفشل في أعقاب فشل.

ترجع أصول فكرة «العقل» العربي القبلى المتخلف إلى عقود من الكتابات الاستشراقية، وتبرز بخاصة في أعمال برنارد لويس ورفائيل بطي. لكن ما يميز زكريا عن لويس هو أن تحليله للعالم العربي يعين حدود هذا الفشل بصفته فشلا في استيعاب الحدثة وتبنيها، أى أنه فشل سياسى ومجتمعي. وعلى حين أن مسئولية لويس عن الحملة الأيديولوجية ضد المسلمين تكمن في أنه أتى بتفسيرات أكاديمية «مزعومة» عن أسباب اختلاف المسلمين عن الغرب واستحالة اندماجهم معه أو قبولهم موروثاته الديموقراطية وتوجهاته الإنسانية، فإن دور زكريا هو تسييس تلك الثغرات الثقافية والمساعدة على صياغة حلول عملية تُمكن الولايات المتحدة من التدخل وتوسيع

سيطرتها بزعم الحفاظ على أمنها ومصالحها السياسية والرفاه الاقتصادي العالمي، بتعبير آخر، لا تستند قيمة زكريا، بالتقابل مع لويس، إلى أى مسوغات أكاديمية، بل إنه يمضى يدعو بحماس إلى علاج فشل المسلمين من خلال تبنيهم اقتصاد السوق الحر، والخصخصة ولبرلة التجارة والتعديل الهيكلي لـ «المجتمعات العربية المُغلقة».

وفيما أن لويس يعزو إخفاقات المسلمين إلى بربرية «العقل العربي» فإن زكريا يعزو كراهيتهم للغرب إلى إخفاقات الثقافة السياسية العربية ونظمهم الاقتصادية، ويذهب إلى أن التنمية فى العالم العربى اقتصرت على المحاكاة البيغائية لتفاهات العصر الحديث، أى أن حداثهم هى مجرد «نسخة زائفة» مشوهة من الحداثة، إذ إنهم يحاكون الشكليات المادية ويففلون المبادئ الحديثة؛ ثم يمضى ليقول «إن استيراد السلع الغربية سهل، لكن استيراد الحشو الداخلى للمجتمع الحديث - السوق الحر، الأحزاب السياسية، الخضوع للحاسبة، حكم القانون - صعب، بل إنه يمثل خطرا على النخب الحاكمة»، ومن سوء الحظ أن العرب غير مؤهلين ثقافيا واجتماعيا وفكريا للاستفادة من العولة: «يشاهد العرب العروض والبرامج التليفزيونية الغربية، ويتناولون الوجبات السريعة ويشربون المشروبات الغازية، لكنهم لا يقومون بعملية تحرير حقيقى لمجتمعاتهم». من ثم، فإن ما نشاهده «هو عكس العملية التاريخية فى العالم الغربى حيث أنتجت الليبرالية الديموقراطية، وتعزز الديموقراطية الليبرالية. أما الطريق الذى سلكه العرب فقد أنتج الديكتاتورية التى ولدت الإرهاب الذى هو أبرز تجليات علاقة الاختلال الوظيفى هذه بين الدولة والمجتمع».

وفى تحديده لمعالم إخفاقات المجتمع العربى «غير الليبرالي» يستشهد زكريا بتقرير برنامج التنمية الصادر عن الأمم المتحدة، وبخاصة الاتهام الخاطئ الذى جاء بالتقرير بأن العرب لا ينتجون كتباً مؤلفة أو مترجمة. تظهر تحليلاته العرب مفسدين فكريا وراكدين اجتماعيا ومعوقين اقتصاديا، وتصبح هذه النغمة معزوفة دائمة تستمع إليها الجماهير العربية حيث حظى تقرير التنمية البشرية الصادر عن الأمم بتغطية واسعة فى الإعلام العربى. وفيما يركز التقرير على أزمة ثقافية واجتماعية واقتصادية

وشبكة في العالم العربي بسبب «تضخم أعداد الشباب»، فإنه يتجاهل، مثل زكريا، عن عمد كثيرا من الحقائق الموجودة على الأرض. مثلا، فعلى مدى السنوات العشر التي مرت منذ صدور تقرير التنمية الأول، ارتفعت معدلات الإلمام بالقراءة والكتابة في العالم العربي، وتنامت الطبقة الوسطى الحضرية في جميع العواصم العربية الكبرى، وقد حدث هذا على الرغم من العقوبات المعوقة التي فرضتها الولايات المتحدة على بلد مثل العراق باسم الأمم المتحدة. بيد أنه أيضا فقد شهدت تسعينيات القرن الماضي والسنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين حركات تقدمية دينية وعلمانية جديدة تنمو في معية منظمات ديموقراطية قاعدية عمالية وطلابية من المغرب وحتى سوريا. وفيما يمتدح زكريا الحكام والملوك المستبدين الليبراليين الموالين لأمريكا، فإنه يتجاهل ازدهار مجموعات الحركات القاعدية التي تحتج على السياسات الاقتصادية والبيئية المدمرة، وعلى القمع السياسي الذي تمارسه الدولة في آن. وفي واقع الأمر، فمنذ مطلع الألفية الجديدة، تبنى زكريا والمنظرون السياسيون المؤدلجون الآخرون، بأسلوب انتقائي، بعض الحركات «الشعبية» في الشرق الأوسط. مثلا، لا يناقش زكريا أبدا «ربيع دمشق» حيث تضغط العديد من مجموعات المجتمع المدني، والشبوعيون المعارضون، والبعثيون الإصلاحيون، والمثقفون من أجل إجراء إصلاحات داخلية وإجراء الحوار مع الدولة. وبالتقابل، تم تصوير «ثورة الأرز» بحسب تسمية الإعلام الغربي، على أنها حركة لبنانية جماهيرية ديموقراطية عفوية، وهذا ما لم تكنه أبدا حركة «١٤ آذار»، إذ إنها كانت عبارة عن إعادة تحالفات بين النخب الذين قاموا بحشد المشاعر القومية الكارهة للأجانب في غالبيتها بين أتباع طوائفهم من أجل تحدى الوجود السوري بلبنان. من ثم، لا غرو أن زكريا كان على رأس الإعلاميين الذين شوهوا فوز حماس في الانتخابات الديموقراطية التي أجريت بالمناطق الفلسطينية.

لا يتبنى زكريا الأحداث التاريخية اعتباريا ويؤولها بصفتها حركات ديموقراطية، لكنه يفعل ذلك لأن تحليلاته تتسق مع الخطاب الأعم الذي أصبح هو إحدى سماته. أي أنه يصور العالم العربي على أنه ينقسم بين «أنظمة مارقة» و«ديموقراطيات غير

ليبرالية»، ومن ثم فهو يتسم «بعلاقة خلل وظيفى بين الدولة والمجتمع». ومما لا ريب فيه أن زكريا يتفق مع أعمال لويس «المرجعية»، ومع النموذج المعيارى الذى يصور العقل العربى على أنه معيب جوهرى بأسلوب يكاد يكون وراثيا، إلا أن زكريا لا يهتم بحتمية لويس الدينية والإثنية بقدر اهتمامه بالتوصل إلى وضع تصور تخطيطى برجماتى يفهم من خلاله الثقافة السياسية العربية، إذ يذهب منطقاً إلى أن الأسلوب الوحيد لإعادة هندسة تلك الثقافة هى فهمها كاملة بكل انحرافات وأمرضها. يبين فى تفسيره البنية التنظيمية للعالم العربى أنه «يقع الآن أسيرا بين الدول الاستبدادية والمجتمعات غير الليبرالية التى لا يمكن لأيهما أن يكون أرضاً خصبة للديموقراطية الليبرالية، ثم يضيف قائلاً «لقد أنتجت التفاعلات الدينامية بين هاتين القوتين مناخاً سياسياً يملؤه التطرف الدينى والعنف». والحال هكذا، فإنه ينبغى الدفاع عن دعم الولايات المتحدة لتلك النظم العربية الاستبدادية: «على الرغم من أن حلفاء أمريكا فى الشرق الأوسط استبداديون وفاسدون وقمعيون، إلا أنهم أكثر ليبرالية وتسامحاً وتعددية ممن قد يحل محلهم». يصر زكريا أن الحلفاء من أمثال المغرب والأردن ومصر [مبارك]، بل وحتى الأسرة المالكة السعودية أكثر ليبرالية وتسامحاً وقابلية للإصلاحات الاقتصادية النيوليبرالية ومنح النساء حقوقهن وإقامة مجتمع مدنى «حر» من العدو المشترك، أى الإسلاميين.

أتاحت برجماتية زكريا له الاستمرار فى لعب دور فى الحياة السياسية بعد بوش، بل إنها مكنته من التباعد عن أجنحة المحافظين الجدد القتالية فى الشرق الأوسط لدى فشلها الواضح أثناء فترة رئاسة بوش الثانية. وفى واقع الأمر، فقد نجح زكريا فى إعادة تشكيل نفسه ليصبح شخصية إعلامية، وتمكن بذلك من إن يكتب، بسلاسة، مقالات يدافع فيها عن أسباب ردود أفعال الولايات المتحدة المبالغ فيها بعد ٩/١١، دونما أن يتنكر لتحليلاته القائمة على أساس أيديولوجيا الإسلاموفوبيا، وذلك لأنه لا يعتمد أساساً فى تحليله على الكراهية المقيتة للإسلام والعرب وعلى الالتزام مدى الحياة بمصالح إسرائيل بنفس القدر الذى يتجلى فى أعمال لويس، بل على التمسك

بمصالح الولايات المتحدة السياسية والاقتصادية بصفتها «قائدة العالم الحر». مكنه هذا النهج البرجماتى من البقاء طويلا فى عالم ظل يتأرجح بين أعمدة القوة «الصلبة» والقوة «الناعمة» لكن، وكما سنرى، فعلى الرغم من إعادة تشكيل نفسه كبرجماتى لا حزبي، إلا أن الرواية التى مضى يروجها طوال العقد الأخير تظل حاضرة فى سياسة أوباما شرق الأوسطية وفى خطاب كثير من مستشاريه بشأن الشرق الأوسط. وفى هذا الصدد، فإنه بإمكاننا القول إن زكريا هو المنظر المكتمل للإمبراطورية الأمريكية بالتقابل مع لويس المنظر المكتمل للإسلاموفوبيا ذاتها.

وعلى الرغم من أن زكريا يصر على أنه ينبغي على الولايات المتحدة دعم حلفائها التاريخيين ورعايتهم إلا أنه يرى أن اعتماد حلفاء الولايات المتحدة المستبدين على المعونة الأمريكية هو مصدر لسلبية الجماهير تجاه النخبة. يقرر، وهو ينكص إلى استخدام التنظيمات والمزاعم بشأن خمول العرب المتأصل أن دول العالم العربى تعتبر «نموذجاً نمطياً للدول التى تعيش على عائدات صناديق الائتمانات»، ثم يمضى قائلاً «إن دخل تلك الدول الذى لا تكسبه بجهدا» بل يأتيها كمعونات أو من عائدات النفط شجع الأنظمة شرق الأوسطية على «ألا تطلب سوى القليل من شعوبها، وفى المقابل، لا تعطيه سوى القليل». ثم ينتهى تحليل زكريا من حيث بدأ حيث يقرر أن «الاموال التى تاتى بلا جهد لا تعنى سوى قليل من التحديث الاقتصادى أو السياسى». يبرىئ منطق هذا الولايات المتحدة من أية مسئولية عن طول عمر تلك الأنظمة الجامدة المحتضرة فى الشرق الأوسط، حيث يذهب إلى أن المسئولية لا تقع على الحكومات القمعية أو رعاتها فى واشنطن، بل على الجماهير العربية غير الراغبة فى المشاركة فى مجتمعاتها المدنية أو تقبل المسئولية عن قصورها وعدم كفاءتها أو تحمل عبء الحياة السياسية كاملا. بدلا من ذلك، نراهم على استعداد دائما للاحتجاج ضد إسرائيل والولايات المتحدة، بدلا من مواجهة أوجه قصور مجتمعاتهم وأنظمتهم الحاكمة.

وفى واقع الأمر، يرى زكريا أنه من الواضح أن عدم وجود «المجتمعات المدنية»

أو «ثقافة الديمقراطية» [فى البلاد العربية] ينجم عن عقلية الدولة التى تعيش على عائدات صنابير الانتمائات». وبدورها، فإن فشل الحكومات العربية فى تحرير طبقاتها الوسطى ومنحها حقوقها، وأيضا فشل الشرائح الوسطى والعالية من الطبقات المتوسطة فى تشكيل ديموقراطيات مدنية فاعلة هو مصدر الإرهاب.

### نجاهل التاريخ: النيوليبرالية بصفتها صنوا للحدائثة؛

يعبر زكريا فى «لماذا يكهوننا؟» و«مستقبل الحرية» بإيجاز وتحديد عن منطق أهداف السياسة الخارجية الأمريكية فى زمن ما بعد الحرب الباردة. فبدلا من أن يدفع بإدانة ثقافية عنصرية صريحة لنوازع العرب وميولهم، يقدم تحليلا اجتماعيا/ سياسيا وصفيا وموضوعيا فى ظاهره لكراهية المسلمين للغرب - وهى كراهية، كما يُدكرنا بالإمكان أن تنمو محليا بسهولة، وتستورد إلى الداخل الأمريكى، وتصدر إلى جميع أنحاء العالم الإسلامى غير العربى. وفيما يروج المؤرخ لويس للإسلاموفوبيا التى يُسوِّقها على شكل مجازات عبر/ تاريخية وسمات متصلة فى العقل العربى، يتمثل إسهام زكريا فى التشكيل الأيديولوجى ما بعد الحدائث للإسلاموفوبيا بربطه بين أوجه فشل المسلمين والحظة الكوكبية الراهنة. ومن خلال دمج الحدائثة بالهولة، والسياسات النيوليبرالية بالديموقراطية، يريد زكريا لنا أن نفهم كيف أن غياب الحرية [أى التجارة الحرة] يؤدى إلى التخلف الاقتصادى والاجتماعى وأيضا إلى تنامى مشاعر الاستياء من الغرب الذى يتمتع بمزايا الديمقراطية والحدائثة.

ليست الفكرة القائلة بأن الأنظمة العربية تتشدد بمبادئ الحدائثة فيما تعمل ضدها على أرض الواقع بالجديدة. قام جيل سابق من المفكرين العرب من أمثال صادق جلال العظمة وهشام شرابى ومحمد عابد الجابرى بمناقشة فشل العالم العربى فى الأخذ بالحدائثة والتنظير لهذا، وليس ثمة حاجة لزكريا أن يعرف العربى ليعلم أن لهؤلاء الكتاب مكانة مركزية فى الفكر السياسى العربى، ولا يبدو أن هذا الجهل المتعمد بأية معلومات ولو سطحية عن تاريخ الفكر العربى الحديث مصادفة. يختلف مفهوم الحدائثة لدى هؤلاء المفكرين العرب عن استخدام زكريا المضلل له. قام

المفكرون من أمثال شرابي والعظمة والجابري، منذ خمسينيات القرن الماضي، ثم بعد عام ١٩٦٧ بمراجعة الأساليب التي بها حُدُّ أسلافهم في القرن التاسع عشر معنى الحداثة في العالم الماضي، وأضافوا أراهم. ومن المفارقات أن تلك الأعمال الفكرية ذاتها، والتي يمكن الحصول عليها مترجمة إلى مختلف اللغات، تناقض آراء زكريا ولويس التي تجزم بأن العرب يفتقدون تقاليد النقد الذاتي. ذهب هؤلاء المفكرين إلى أن الحداثة هي فترة من الأوضاع السياسية والاجتماعية. يجرى العمل فيها على القضاء على الممارسات والأفكار الإقطاعية السياسية والاجتماعية والاقتصادية التقليدية مع المحافظة على الهوية العربية. أي أن هؤلاء المفكرين يرون الحداثة هي حالة من التحرير الاجتماعي/ الاقتصادي والسياسي وتحرير المرأة، لا كما يراها زكريا على أنها «مأسسة» مبادئ الديمقراطية الليبرالية والاقتصاد النيوليبرالي. إن الحداثة التي يدعو لها زكريا الذي تأثر بأستاذه صمويل هنتنجتون هي مجرد تمويه وذريعة لإجبار المجتمعات على إصلاح العيوب الاقتصادية والاجتماعية التي يعانون منها ليس من خلال ترسيخ إجراءات الحداثة ومبادئها كما يفهمها مجتمعهم المدني بعد عقود من التفحص الناقد والأنشطة السياسية. الأخرى أن «حداثة» زكريا تعني أن تتجرع المجتمعات العربية واقتصاداتها المدعومة أقراص النيوليبرالية والعودة السحرية كي تلحق بعصبة الأمم المتحضرة، أما إن رفضت هذا «الإصلاح الاقتصادي» المزعوم فإن هذا يعني أنها ترفض الحداثة وحقوق الإنسان والديموقراطية «وحكم القانون».

وفي هذا الصدد، تعكس أعمال زكريا فلسفة النيوليبرالية ونظرتها إلى العالم حيث تضع الأسواق الحرة والتنمية الاقتصادية الليبرالية في مقدمة تمكين الجماهير والمبادئ الديمقراطية. وعلى حين أن زكريا يتحدث عن إخفاقات المسلمين وتركز كتاباته الأخيرة على باكستان وإيران فإنه يرى إخفاقات تلك البلدان الإسلامية نتيجة لإخفاق العالم العربي، قلب العالم الإسلامي، حيث إنه ويسبب عدم قدرة العرب على استبطان الحداثة، وتطوير مجتمع مدني وتنمية اقتصاد حر غدا «العالم

العربي صحراء سياسية بدون أحزاب سياسية حقة أو صحافة حرة. لا يوجد به سوى مجالات قليلة للاختلاف والمعارضة، ومن ثم غدا المسجد المكان الذي تُناقش فيه السياسة». وتوضح مثل هذه الآراء الجارفة مدى خداع زكريا الفادح أو اقتناده للمعرفة. فمثلا يتجاهل عقودا من نقد المثقفين لسوء إدارة التنمية والسلطوية فى العالم العربي فإنه يتغاضى عن جماعات الناشطين القاعدية البارزة مثل كفاية بمصر والبديل فى سوريا والمجتمع المدنى أو شبكة المنظمات غير الحكومية للتنمية بلبنان وATTac-Maroc بالمغرب وغيرها وغيرها، علاوة على التاريخ الطويل للجماعات العلمانية الديمقراطية الناشطة فى العالم العربي.

ظل الحشد السياسى الجماهيرى والوعى السياسى من نسيج التاريخ السياسى الحديث فى العالم العربي. وعلى الرغم من أن أحزابا مثل جبهة التحرير الجزائرية، وحزب المؤتمر الشعبى باليمن، والحزب الوطنى الدستورى بتونس وحزب البعث السورى قد استفردت بالسلطة وحولت بلادها إلى نظام الحزب الواحد إلا أنها كانت قد قامت على أسس أيديولوجية علمانية وكان لها لجان تنفيذية داخلية وفازت فى الانتخابات وكان لها قواعد تأييد شعبية من جميع القطاعات. وعلى الرغم من ذلك، يوجد فى الوقت الراهن الكثير من الأحزاب الإسلامية واليسارية الديمقراطية، مع حفنة من الأحزاب اليمينية تسعي، وعلى الرغم من الحكومات التى تدعمها الولايات المتحدة، إلى تفعيل التمثيل البرلمانى. بيد أنه، وحتى لو ألم زكريا بدروس التاريخ وما يحدث على أرض الواقع، سيظل تحليله كما هو وذلك لأن نظرتة إلى العالم الإسلامى تقوم أساسا الانتهازية الأيديولوجية التى تجعله يُحرِّف الحقائق ويشكل منها رواية تنتهى إلى أن الغرب ظل دائما فى جانب التاريخ المضىء فيما ظل العالم الإسلامى ظله المظلم.

### من إخفاق الأنظمة إلى الإصلاح المنهجى:

مع الأخذ فى الاعتبار قراءة زكريا الانتقائية والأيديولوجية للتاريخ، نجد أن تاريخه يواجه ألغازا دائمة. كيف يتأتى لأى أحد إدخال الديمقراطية على مجتمع يعتقد

التخلف بإرادته وبأسلوب حماسي؟ تشكل إجابة زكريا قطيعة مع البيت الأبيض ومع برنارد لويس والآخرين الذين دفعوا بـ«أجندة الحرية»، وهي فانتازيا لهندسة ديموقراطية لا تصلح للعالم العربى وذلك بسبب ثقافته السياسية وأوجه قصور مؤسساته. من ثم، فهو يرى أن البلاد العربية تحتاج فى الوقت الراهن إلى حكام مستبدين خيرين أو للملك على شاكلة عاهل الأردن، من أجل تنظيم مجتمعاتهم ولبرلتها حتى تصبح ديموقراطية. لكن على الولايات المتحدة أن «تطلب شيئاً» فى مقابل المساعدة والدعم السياسى الذى تقدمه لهم. عليها أن تطلب مقابلاً نظير تضحيتها بالمبادئ الديموقراطية وتعاملها مع الحكام المستبدين، على واشنطنون أن تطالب «بإصلاح سياسى واقتصادي، وليس بإصلاح ديني». لا بد من التحايل على الشعوب العربية حتى تفتح أسواقها ومجتمعاتها، وتلتزم بالولاء السياسى ليس فقط للولايات المتحدة، بل للتعديلات الهيكلية. يرى زكريا أنه فقط عندما يحدث ذلك، ستسود نظم الحداثة المجتمعات العربية وتتوطد دعائمها.

وفى واقع الأمر، سنجد زكريا يوجه اللوم، مؤخراً، إلى سياسات تعددية الثقافة الأوروبية التى سمحت للمسلمين المهاجرين بالحفاظ على ثقافتهم الأصلية، بل وشجعتهم على ذلك، ويزعم أن ذلك هو مصدر التطرف الإسلامى فى أوروبا. أيضاً، فهو يرى أن المسلمين فى الولايات المتحدة ليسوا متطرفين بعامه وذلك لأن أمريكا تعمل على استيعابهم بسهولة فى ثقافة البيض المهيمنة، التى هى ثقافة مسيحية فى جوهرها. يستخدم زكريا هذه الرؤية فى إعادة تشكيل خطته التى كان قد تبناها أثناء سنوات بوش لإجراء الإصلاحات فى العالم الإسلامى، أى أن ليبرالية زكريا فى عهد أوباما هى إعادة تدوير لأعماله السابقة التى تركز على الإصلاح المستهدف والبرلة الاقتصادية، إعادة تدويرها لتصبح نسخة محدثة من الخطة الأصلية التى لا يفتأ يرددتها عن تشجيع المسلمين «المعتدلين». وفى إطار تلك المعايير يؤيد زكريا إقامة مسجد فى موقع أحداث ٩/١١ «Ground zero mosque». واكب موقفه من هذه القضية تنازله عن «جائزة الحرية» التى منحتها إياها «جمعية مكافحة التشهير Anti-

Defamation League الصهيونية وذلك لمعارضة تلك المنظمة الشديدة لإقامة مركز إسلامي في Park 51، بل إن زكريا ذهب، أثناء الجدل بشأن إقامة المسجد، إلى حد تهنئة حزب الله على مصادقته على إعادة ترميم معبد اليهود ببيروت بوادى أبوجميل، وهو حي كان قد أزيل أثناء تنفيذ مشروع سوليدير الإعمارى لرفيق الحريري.

يتعاشق البرنامج النيوليبرالى الإصلاحى لتخلف العالم العربي/ الإصلاحى بسهولة مع سياسات الولايات المتحدة التخيلية فى عهدى بوش وأوباما. أتاحت مرونة استراتيجية الإصلاح البرجماتية التى تبناها زكريا لها الازدهار فى إطار سياسة «القوة الصلبة» الأخلاقية التخيلية التى اتبعتها بوش والذى لم يكن انعزاليا بآية حال، وأيضا البقاء فى عصر «القوة الناعمة»، تلك السياسة الماكرة التى يتبناها أوباما. أثناء سنوات بوش استُخدمت رواية زكريا من قبل الإعلام والجمهور الأمريكى وسيلة يُمكنهم من خلالها توفيق غايتين متناقضتين ظاهريا. فمن جهة، كانت ثمة حاجة لحت الأنظمة العربية على بدء الإصلاح السياسى، أولا وقبل كل شىء من خلال مؤسسة السياسات الاقتصادية النيوليبرالية التى كان بيل كلينتون قد دفع بها فى العقد السابق. ومن جهة أخرى، يمكن تبرير سياسة البيت الأبيض التخيلية الأخلاقية كما عبر عنها لويس، لأن استخدام أساليب «القوة الصلبة» هى الوسيلة الفضلى، إن لم تكن الوحيدة، التى من خلالها يمكن إحداث التغير السياسى والاقتصادى فى العالم الإسلامى، وذلك لأن الأنظمة العربية غير قادرة على إحداث الإصلاح ذاتيا بسبب أوجه قصورها المجتمعية والسياسية. وبدلا من التأكيد على العملية السياسية، يجزم زكريا بأن «الحرىات الاقتصادية والمدنية والدينية هى جوهر الاستقلال والكرامة الإنسانية. فإذا مضت أية حكومة محدودة الديمقراطية فى توسيع تلك الحرىات باطراد، لا يجوز لنا تصنيفها على أنها ديكتاتورية».

يرى زكريا أن هذا منطق سليم حيث يقول «إن الإصلاح السياسى والاقتصادى هو الحل الذى يبقى مدة أطول من غيره، ويجب أن تأتى الإصلاحات الاقتصادية أولا، حيث إنه على الرغم من أن مشاكل الشرق الأوسط ليست اقتصادية خالصة، فقد

يكن حلها في الإجراءات الاقتصادية. وكما رأينا، فإن التحرك باتجاه الرأسمالية هو الطريق الذي يضمن، بأكثر من غيره، إيجاد طبقة وسطى حقيقية ودولة تخضع للمحاسبة. ومرة أخرى، يشير تحليل زكريا إلى فشل آخر للجماهير العربية أي عدم قدرتها على إقامة طبقة وسطى مستقلة نشطة بحق، حيث إن الرأسمالية وبدلاً من أن تكون محرك التغيير في العالم العربي، فقد أفسدها اعتمادها على الثروة النفطية التي أنتجت طبقة وسطى متخلفة ورعتها. بالتالي، لم تصبح الطبقة الوسطى العربية رائدة التغيير بل تراجعت إلى حالة من الإقطاع والقبلية والأبوية، وأصبحت، بحسب تنظير زكريا الذي تعوزه الدقة، مستنبت الأصولية العربية الإسلامية ومصدر تجنيد المتطوعين للجماعات الإرهابية. يرى أن ثمة حاجة «لطبقة حقيقية من رجال الأعمال وأصحاب المشاريع والذين لا بد لهم أن يشكلوا أهم قوة مفردة للتغيير في الشرق الأوسط»..

يتقاطع مبدأ پول وولفويتز عن تسيد الولايات المتحدة في العصر أحادي القطب مع نظريات زكريا في الاقتصاد السياسي. فمن جهة وجد وولفويتز في لويس توعم روحه الصهيونية، وكان هو عملياً من أبدع تسويغات التدخل الأحادي اللامتسق ودعا إليه منذ عام ١٩٩٢. ومن جانب آخر، كان هذا نقبياً لممارسات وولفويتز للتنمية أثناء فترة رئاسته [الخلافة] للبنك الدولي وعمله سفيراً بإندونيسيا في عهد رجلها القوى وحاكمها المستبد سوهارتو. أثناء فترة عمله برئاسة البنك الدولي، طوّر وولفويتز، بالاتساق مع آراء زكريا، سياسة ليبرالية جديدة أصبحت الأساس الذي قام عليه «فرع» مشبوه داخل البنك يسمى «صندوق المستقبل» الذي كانت تموله بشكل أساسي وزارة الخارجية الأمريكية وتترأسه شاهه رضا، تلك الشخصية الخلافية التي كانت عشيقه وولفويتز ومسلمة كارها لذاتها. كانت مهمة «الصندوق» تستهدف الشرق الأوسط تحديداً، حيث إنه، وبحسب ما قالت كونداليزا رايس «سيقوم بإعطاء منح تمكن الإصلاحيين من الاستناد إلى أفكارهم ومثلهم لإقامة تنظيمات قاعدية ورعايتها من أجل دعم نمو الديمقراطية».

تفسر هندسة زكريا السياسية ثناءه على الأردن والمغرب، وأمله في أن تصبح بلاد عربية أخرى مثل سنغافورة، أي «ليبرالية» «دستورية» وسلطوية على أرض الواقع. يذهب زكريا إلى أن الطريق للوصول إلى تلك اليوطوبيا الهويزية [نسبة للفيلسوف الإنجليزي توماس هوين]، أي نظام الدولة الخيرة السلطوية هي من خلال «فترة انتقالية» مدتها خمس سنوات تجرى خلالها إصلاحات اقتصادية وتنمية مؤسسية تسبق إجراء الانتخابات متعددة الأحزاب. يعمل على تحسين سلسلة التناقضات التي يصفها زكريا عقيدة مهيمنة بأن الحريات المدنية والاقتصادية لها الأولوية على الديمقراطية وحكم الشعب. يوضح وهو يصف «الديموقراطية الليبرالية» بتاريخ مفهوم «الحرية» في الصفحات الأولى لكتابه أن العالم العربي ليس مهياً لها، ويؤكد أن دروس التاريخ السياسي لأوروبا وأمريكا الجنوبية تعلمنا أن الحرية استبقت الديمقراطية على الدوام، وأنه ليس بوسع أي بلد إقامة ديموقراطية حقة تلقى قبولا سياسيا واقتصاديا من الولايات المتحدة إلا بعد أن يجرى لبرلتها لقتصاديا. وعلى حين أن الجماهير الأمريكية لم تلاحظ حقيقة أن فلسفة زكريا تحرم الملايين في العالم النامي من حقهم في المشاركة في حكم بلدهم إلا أن تلك الحقيقة لفتت انتباه الصحافة العربية، حيث علق عبدالنبي بن علي، الصحفي العربي بقوله إن وقاحة تلك الهندسة الفجة تؤكد أن فاعلية تعليقات زكريا على الأوضاع في الشرق الأوسط تكمن في طلاقته ك«نبي للديموقراطية النيوليبرالية».

### فاعلية زهاجج النجاح التي تنجز محليا:

على حين أن زكريا أعاد تشكيل نفسه كبرجماتي وسطي أثناء سنوات أوباما، فقد كانت سنوات بوش هي التي أتاحت له الفرصة لتطوير السياسات المحافظة التي كان قد نماها في العقد السابق، وللاستفادة أيضا من آراء المحافظين الجدد التي تبناها لويس عن الشرق الأوسط. وعلى الرغم من أنه من المنطقي ترجمة الإصلاح النيوليبرالي إلى إصلاح سياسي ولبرلة اجتماعية إلا أن سنوات بوش منكت فرصا واقعية غير مسبوقة لتطبيق ذلك. استند إيمان زكريا بالنيوليبرالية إلى حقيقة قوة

الولايات المتحدة الجيوسياسية، وفي إطار هذا التوجه، رأى أنه ينبغي أن تظل للولايات المتحدة علاقة بما يجرى من أحداث من خلال سياسة خارجية استباقية، وأنداك، كان بإمكان سياسة «القوة الصلبة» التي تبناها بوش ضمان هذا بأسلوب غير ملتبس. كانت الذريعة الأيديولوجية الأكثر إقناعاً بشأن الحفاظ على علاقة الولايات المتحدة هذه هي فكرة الإلزام الأخلاقي كما طرحها لويس والمحافظةون الجدد. وعلى الرغم من أن زكريا كان يتفق معهم على أن للولايات المتحدة واجباً أخلاقياً للدفع بالديمقراطية في العالم العربي، إلا أنه كاستراتيجي ومعلق سياسي، رأى أنه ينبغي أن يواكب «أجندة الحرية» إصلاح اقتصادي وفتح الأسواق العربية وتحرير للتجارة وإعادة الهيكلة البنوية.

من ثم، أخذ زكريا برأى غلاة المحافظين الجدد القائل بأن الشرق الأوسط بحاجة إلى قصة نجاح يتم إنجازها محلياً، حيث تم الاتفاق على أن قصة النجاح تلك ستجزي في العراق. ذهب زكريا إلى أنه رغم ضعف قدرات شعوب المنطقة الدائم إلا أنهم ينبغي أن يضطلعوا بمهمة الإصلاح، كما أن على الولايات المتحدة أن تدعمهم، حيث إن التغيير يمكن أن ينجز فقط من خلال طبقة محلية من النيوليبراليين تساعدوا واشنتون، بل وتوجدها إذا اقتضى الأمر. كانت هذه تحديداً هي الأفكار التي عبر عنها وولفويتز- وبيزل ورمسفلد في الاجتماعات التي عُقدت بالبيت الأبيض في أعقاب ٩/١١ حيث ساد الرأي القائل بأنه إذا أطاحت الولايات المتحدة بحاكم مستبد، ستصعد طبقة جديدة من أصحاب المشاريع الأشخاص والديموقراطيين وتخلق «شرقاً أوسطاً جديداً»، بحسب تسمية كوندليزا رايس له لاحقاً أثناء عدوان إسرائيل على لبنان عام ٢٠٠٦. ذهب زكريا وغيره من أمثال دونالد رمسفلد إلى أن العراق كان المرشح الأول لهذا التغيير بسبب تاريخه العلماني، ووجود طبقة وسطى راسخة وثروته النفطية. هنا، كانت كتابات زكريا في صحافة التيار السائد تعبيراً عن نفس المشاعر والتطلعات التي جاءت بالخطاب المفتوح للرئيس كلينتون عام ١٩٩٨ الذي وجهه أعضاء الأميركيان إنتربرايز إنستيتيوت.

في عام ٢٠٠٣، نشر زكريا أمام الرأي العام الأمريكي ما يعتبر بروقة لرؤية اقتصادية وسياسية راديكالية جديدة للعراق حيث بينَ قائلا «لو أطلقت الولايات المتحدة بصدام» ومضت تنفذ مشروعا طويلا الأمد لبناء الأمة، فبإمكان العراق أن يصبح أول بلد عربي كبير يجمع بين الثقافة العربية والدينامية الاقتصادية، والتسامح الديني والسياسة الليبرالية والنظرة الحديثة إلى العالم». كانت معاييرها للنجاح في تغيير النظام واضحة حيث رأى أن العراق مرشح لهذا لأنه بلد به انقسامات مناطقية وإثنية ومذهبية قوية. ذهب أيضا إلى أنه لا يجوز أن يفهم تغيير الأنظمة على أنه يقتصر على حالة واحدة، الأخرى أن فاعليته تكمن في قدرته على استتساخ نفسه في بلدان أخرى ثم يختتم قائلا إن «النجاح مُعَد». وفيما يصادق دوجلاس فيث في «مذكراته» على أن ذلك كان هدف البيت الأبيض في عهد بوش، يُبين الجنرال ويزلي كلارك في كتابه بعنوان «كسب الحروب الحديثة» أنه تلقى قائمة بسبعة بلاد شرق أوسطية عيّنَها البيت الأبيض في عهد بوش لتغيير أنظمتها وكان من بينها إيران ولبنان وسوريا والسودان، وكانت إدارة بوش قد أعلنت تلك الخطة الطموحة في مذكرة نصت على أن هدفها هو تحقيق هذه الغاية في غضون خمس سنوات.

أمدت كتابات زكريا التيار السائد بإطار تبدو من خلاله «أجندة الحرية» التي تبناها بوش منطقية جدا. صادقت تحليلاته على آراء «فلاكنة» بوش وصقوره وأكدت بأسلوب جازم أن مشكلات العالم الإسلامي على درجة من الخطورة بحيث أصبحت تمثل تهديدا لأمن الولايات المتحدة. من ثم، فإنه وفيما تحافظ واشنطن على أمن أمريكا يمكنها أيضا تحرير المجتمعات المسلمة التي أصابها الوهن نتيجة إخفاقاتها ويسبب أنظمتها الجامدة المحتضرة. وفيما يُقر زكريا بأن المسلمين ليسوا جميعا متخلفين بالضرورة، فإنه يتفق مع لويس الذي يرى أن العالم العربي قد نجح في تسميم معتقدات العالم الإسلامي من خلال مناهج الدعوة التي تُدرّس بالمدارس الدينية التي تمولها البترودولارات العربية من ثم يجب أن تضطلع الولايات المتحدة بدور استباقي تدخل في إصلاح المجتمعات شرق الأوسطية. وإذا كان بوش قد وقف

[بعد غزو العراق] أمام لافتة كُتِبَ عليها «المهمة أنجزت»، فإنه وتشينى مَضِيًا يُكرِّران أن المهمة الكبرى هي حرب شاملة على الإرهاب لا يمكن التنبؤ بنهاية لها، حرب «عادلة» و«ضرورية» تستهدف أعداء الحداثة والديموقراطية وحكم القانون.

### الخلاصة:

ونحن نختم هذا الفصل، لابد من توضيح بعض النقاط. إن السبب المباشر في جو الحصار الذي يعيشه المسلمون في أنحاء العالم هو سياسات الولايات المتحدة المستدامة منذ «عاصفة الصحراء». بيد أن هذا لا يعنى أنه لم يكن ثمة جو من الازدراء ومحاولات التقسيم وبت الفرقة والتحكم قبل عام ١٩٩١، هذا على الرغم من أنه لم يكن بمثل هذه الحدة، فقد حدثت حالات تدخل أمريكية عديدة في الشرق الأوسط قبل حرب الخليج. في عام ١٩٥٨، أرسل الرئيس أيزنهاور قوات أمريكية إلى لبنان لدعم كميل شمعون رئيسها الموالي لأمريكا، والذي كان على وشك السقوط. كان شمعون قد أقال، بأسلوب غير قانونى، عددا من الوزراء الناصريين، وحاول، في مخالفة للدستور، تمديد رئاسته فترة أخرى. وحينما قامت القوى التقدمية المسلمة في غالبيتها، بالتمرد ضده، أمر أيزنهاور بنشر قوات المارينز في لبنان لإنقاذ الحكومة، ثم قامت الولايات المتحدة، وفي وجود المارينز على الأرض بتنصيب فؤاد شهاب، وكان قائدا سابقا للجيش، ذا ميول قومية ويحظى بالاحترام، لكنه لم يكن ذا توجهات ناصرية أو اشتراكية. وفي نفس العام، أطاح الجنرال عبدالكريم قاسم بالنظام الهاشمى العميل في العراق. ثم تحالف مع الاتحاد السوفييتى وانسحب من حلف بغداد الذى كان يضم إيران وتركيا وباكستان والعراق وبريطانيا، والذي كانت بريطانيا قد عملت على تشكيله بعد عامين من الانقلاب الذى دبرته السى آى إيه ضد محمد مصدق، رئيس الوزراء الإيرانى المنتخب ديموقراطيا، وإعادة تنصيب الشاه. ثم مضت السى آى إيه، وقد شجعها نجاحها فى إيران فى لعب دور محورى فى الانقلاب البعثى الذى أطاح بعبد الكريم قاسم عام ١٩٦٣. أما المواجهة التى حدثت بين أيزنهاور، وبين إنجلترا وفرنسا وإسرائيل فى عدوان عام ١٩٥٦ فلم تكن بدافع

الحرص على سيادة مصر بل كانت خطوة حصيفة لتجنب أى تصعيد مع الاتحاد السوفييتى [وإنهاء دور بريطانيا فى الشرق الأوسط]، هذا على الرغم من أن مصر بقيادة عبدالناصر كانت من دول عدم الانحياز. بيد أنه أثناء الحرب الباردة، فإن قائمة التدخلات الأمريكية فى الشرق الأوسط وسياساتها العدوانية هناك، بما فى هذا دعم واشنطن الذى لا يتزعزع للصهيونية الكولونيالية ومساعدتها على تحقيق أهدافها، كان مرده الأساسى التنافس بينها وبين الاتحاد السوفييتى على السيطرة على العالم.

يجسد تاريخ سياسة الولايات المتحدة الخارجية فى العراق تغير سلوك واشنطن تجاه الأنظمة العربية. فعلى حين أن السى أى إيه ساعدت الانقلاب البعثى عام ١٩٦٣، إلا أن العراق عاد إلى الحظيرة السوفييتية فى نهاية ستينيات القرن الماضى، ثم كان دفع العلاقات بين صدام حسين ورونالد ريجان إيذاناً بمقدم العصر الذى نعيش فيه الآن حيث إن هذا التقارب حدث فى أعقاب ظهور الإسلام الثورى بقيادة الخمينى على المسرح العالمى من ثم، طورت واشنطن علاقات عسكرية وثيقة مع حكومة العراق «المعادية للديموقراطية» بل والاشتراكية أيضاً وذلك من أجل استخدامها للقتال ضد الإسلام الجهادى الذى تمثله إيران والذى كان يهدد باختلال توازن القوى الإقليمى وأيضاً اختلال سوق النفط العالمى. ومن جهة أخرى، كان صدام، الذى كان محاطاً بالأخطار، على أتم استعداد، وعلى الرغم من مزاعمه عن «إيمانه» بالاشتراكية والقومية العربية والعلمنية، أن يتلقى المعونات العسكرية من الغرب من أجل إنجاز مخططاته فى مختلف المناطق العراقية، وتحقيق طموحاته السياسية الإقليمية.

فى ثمانينيات القرن العشرين، بدأ التموضع الأيديولوجى للولايات المتحدة فى التحول من مواجهة النفوذ السوفييتى فى الشرق الأوسط إلى الحاجة للتحكم المباشر فى المناخ السياسى فى العالم العربى وإدارته، وبخاصة مع صعود الإسلام السياسى القتالى. ظلت سياسة الولايات المتحدة الخارجية فى الشرق الأوسط سواء فى وجود الاتحاد السوفييتى أو فى عصر العولمة، تقوم على زرع الفرقة، واستخدام المؤامرات

وممارسة الضغط الاقتصادي أدوات رئيسية لها. أما الدوافع الأساسية التي شكلت تقليديا الركائز التحتية لتلك السياسة شرق الأوسطية فقد ظلت مصالح إسرائيل وأمنها والمصالح النفطية. تم توثيق تاريخ اهتمام الولايات المتحدة بنفط الشرق الأوسط جيدا، وقد زاد هذا الاهتمام الآن بكثير من أى وقت مضى، حتى أن ألان جرينسيان بين آخرين، قد أكد بوضوح أن غزو العراق كان من أجل «أمن النفط».

كثيرة هي التعليقات والتحليلات التي تتناول دعم الولايات المتحدة لإسرائيل، وسيتم مناقشة هذا الموضوع نقدياً فى الفصل السادس من هذا الكتاب حيث سنقوم بتفنيد كثير من النظريات السائدة عن هذه العلاقة الوثيقة ومنها تلك التى تفسر ولاء واشنطنون للدولة اليهودية وإذعانها لها على أساس أن إسرائيل تعمل طابورا خامسا للولايات المتحدة. أيضاً، يزعم جون ميرشيمر وستيفن وولت فى ورقتهما الشهيرة أن اللوى اليهودى الأمريكى والمسيحيين الإنجيليين الموالين لإسرائيل هم من يعززون دعم الولايات المتحدة لإسرائيل إلى حد كبير مستخدمين نفوذهم المالى فى العملية السياسية، ويذهبان إلى أن هذا الدعم أثر سلبيا على مكانة الولايات المتحدة فى العالم العربى، كما أنه يعمل ضد مصالح البلد الحقيقية. بيد أن الآراء الشعبية ونظريات المؤامرة عن الولايات المتحدة لدى شعوب الشرق الأوسط تشير إلى ما هو أكثر من شعب واهم مخدوع - بل العكس هو الصحيح. يذهب أحد تفسيرات تاريخ السياسة الخارجية الأمريكية فى المنطقة، والتي تبدو لا مبالية وقصيرة النظر وإمبريالية وقاصرة، إلى أنها ذات دوافع أيديولوجية بحيث يمكن أن تنطبق عليها تفسيرات المنظرين بداية من ماركس وحتى ألتوسير. أى أن الآراء والتفسيرات الهجومية الخبيثة [عن العرب والمسلمين] والتي تفحصناها فى هذا الفصل ليست شذوذاً أو انحرافاً للثقافة السياسية الأمريكية، أو نتيجة عملية اختطاف للمبادئ الأمريكية بعد أحداث ٩/١١ التى روعت الأمريكين. الأخرى أن تلك النماذج التتميطية للعرب عضوية ومصدرها اللاوعى «الأمريكى» السياسى، وقد أوردنا فى هذا الفصل تفاصيل التحليلات التى تتسم بالإسلاموفوبيا، والتي أصبحت حقائق

مفترضة يُبحث من خلالها الشرق الأوسط و يناقش فى الإعلام، وتبّرر بها السياسات الداخلية والخارجية الأمريكية.

يذهب هذا الكتاب لاحقا فى نقاشه للصهيونية إلى أن الولايات المتحدة تتعاطف جوهريا معها وذلك لأن لتلك الأيديولوجيا ذاتها أصداء عميقة تتناغم مع التاريخ السياسى والعسكرى الأمريكى. للمسيحيين الأمريكين إرث طويل من معاداة السامية، وعلى الرغم من الدور البارز لليهود الأمريكين فى الحياة السياسية للحزبين إلا أن معاداة السامية من مكونات اللاوعى الثقافى للأمريكين البيض. من ثم، فإن هذا الدعم الذى لا يتزعزع لإسرائيل لا ينبج فقط عن مشاعر الذنب حول الهلوكوست أو القبضة الحديدية للوبى الصهيونى بقدر ما ينبج عن تماهى المسيحيين شمال الأمريكين مع رغبات الأوروبيين فى استعادة الأرض التى وعدهم الرب بها فى سفر التكوين. مثلا، وعد الرئيس هارى ترومان المعادى للسامية حاييم وايزمان ودايفيد بن جوريون بالاعتراف بإقامة دولة إسرائيل حتى قبل إعلان قيامها على الرغم من معارضة أصدقائه ومستشاريه القدامى كلارك كليفورد وإبراهام جرانوف وإيدى چاكسون ومحاولتهم إثناءه عن ذلك. كان سلوك ترومان القسرى نتيجة مشاعره الدينية العميقة من جهة، وقناعته بحق اليهود الأوروبيين فى «أرض الميعاد» على الرغم من ملكية العرب الفعلية لتلك الأرض منذ أكثر من ألف عام.

من ثم، فعلى الرغم من أن برنارد لويس قد ظل صهيونيا متشدداً منذ زمن، وأن صهيونيته شكلت جوهر أبحاثه وكتاباتة ونشاطه السياسى لعقود، فإن قضية الإسلاموفوبيا ذاتها لا تتعلق بإسرائيل. كما أنه، ومن جهة مغايرة، فلا أهمية لحقيقة أن زكريا شخص مسلم. ونظرا لأن الإسلاموفوبيا تنمو من حطام الإرث الاستشراقى، فإنها تتمحور حول إسقاط الذات الأوربية على الشرق الأوسط، بل وخرسها هناك، فيما تقوم أيضا، بتحديد هوية شرق الأوسطين وعزلهم من أجل «تطويرهم» فى منطقتهم. تتعلق الإسلاموفوبيا بالتحكم فى «الأخر» الذى يمثل تهديدا لنظرة أمريكا البيضاء إلى ذاتها، وإلى مصالحها الاقتصادية والسياسية الذاتية فى

عصر العولمة. توضح لنا كتابات لويس وزكريا أن «العقل» الأمريكي الذي يتجلى فى تلك الكتابات ليس من بقايا الماضي، وتخبرنا أيضا كيف ينظر المسئولون الأمريكيون المنتخبون والمشتغلون بالإعلام ومحترفو السياسة إلى العالم ويبررون التحكم فيه. يمثل هذا الوعي مرتكزات كشوفات هذا الكتاب: أى أن الإسلاموفوبيا أيضا هى تشكيل أيديولوجى ينجم عضويا عن نظرة أمريكا البيضاء المتعالية إلى العالم التى تسعى إلى تبرير مصالحها السياسية التى تتناقض مع المبادئ الليبرالية التى يتبناها الأمريكيون.

يلور كتاب مايكل أورن «القوة، العقيدة، والفانتازيا» الذى يسرد تاريخ مصالح الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط من وجهة نظر صهيونية، صورة العرب فى «العقل السياسى الأمريكى». ليس افتقاد الكتاب لأية قيمة أكاديمية هو المهم، بل اللافت أنه يعكس بوضوح شيطنة الأمريكيين للعرب والمسلمين، وافتتانهم بهم فى أن. تؤكد رواية أورن أن الأمريكيين أبعد ما يكونون عن العنصرية ومعاداة السامية وتتشارك مع كتابات زكريا ولويس فى التجاهل المتعمد لتاريخ الأمريكيين والغربيين العنصرى والإمبريالى بعامه ويجزم، بدلا من ذلك، بأن الإرث الثقافى والدينى الذى يتشارك فيه الأمريكيون مع إخوانهم اليهود فى أرض الميعاد يأسر لب الأمريكيين، وأن الولايات المتحدة ظلت دائما أمة ذات مبادئ تعمل وفق دستورها الأخلاقى (المسيحى) ويذهب إلى أن اليهود والمسيحيين الأمريكيين يمثلون قوة حضارية فى مقابل العالم العربى الذى يسوده التعصب والبربرية كواقع ثقافى. من المفارقات أن أوجه قصور الكتاب أكثر جاذبية بكثير من روايته المعتلة التى تنضح بالإسلاموفوبيا وكرهية العرب، ذلك لأن تحيز الكتاب المقيت، والذى كان موضع إطراء إعلام التيار السائد، يعكس بدقة الكيفية التى ترى بها الولايات المتحدة العالم العربى والإسلامى إذ إنها لا تنظر إليه فقط على أنه مستودع النفط الذى يغذى الصناعات الأمريكية، بل تراه أيضا تهديدا يجب احتواؤه والتحكم فيه.

فى واقع الأمر، فقد أظهرت الأنظمة شرق الأوسطية وقطاع كبير من سكان

المنطقة الود العولة والنيوليبرالية، حتى أن أعدادا لا حصر لها من المثقفين اليساريين والإسلاميين، والناشطين يقولون إن المنطقة أظهرت ترحيبا مفرطا بتلك التوجهات، وأن تطبيق تلك السياسات قد نجم عنه بالفعل قدر كبير من الدمار البيئي، وندرة الطعام، وإعادة توزيع الثروة وتركيزها في أيدي النخبة وزيادة ترسخ الطبقة السياسية ومأسستها. بيد أن بعض المسلمين والعرب ظلوا يقاومون ضغط الغرب من أجل فرض تحرير التجارة، والسياسة الخارجية النيوكولونيالية، والتدخل العسكى المباشر، وأيضا الحكم السلطوى الذى يمارسه من تدعمهم هذه السياسات وتبقى عليهم. وفى واقع الأمر، لم يكن المسلمون أبدا «ضحايا طبيين» حيث ظلوا دائما يرفضون الاستسلام والكُمون فى وضع «المعرضين للمخاطر».

نشاهد على شاشات القنوات الفضائية الإخبارية، الفلسطينيين والبنانيين والعراقيين وهم يلوحون بجثامين أطفالهم الذين قتلهم الأمريكيون، أو الأسلحة والنخائر الأمريكية، وعادة ما ينجزون، عن حق، وعودهم بالثأر لقتلهم.

بيد أن إعلام التيار السائد الأمريكى لا يفهم مقاومة العرب لأعمال عنف المستوطنين والمستعمرين الصهاينة، ومقاومة المسلمين من باكستان إلى المغرب للنيوليبرالية والجرائم السياسية الأمريكية فى المنطقة، لا يفهمها سوى على أنها برهان على تخلفهم. بل إن رفضهم لأن تسحقهم قوة الولايات المتحدة أحادية القطب، أو العولة النيوليبرالية، «تبرر» فى نظر الرأى العام الأمريكى، مزيدا من استخدام القوة سواء من خلال التدخل العسكى المباشر، أو من خلال وكلائهم فى إسرائيل وأفغانستان وباكستان ومصر ولبنان والمغرب. لم يحدث وأن تم تجاهل القرارات الصادرة عن الأمم المتحدة ومجلس الأمن، بشأن أى بلد فى العالم، ناهيك عن التحقيقات على غرار تقرير جلانستون، لم يحدث وأن تم تجاهلها بوقاحة، وصلف كما يتم فى حالة القرارات المتعلقة بالبلاد العربية، وبخاصة فلسطين ولبنان. لم يحدث وأن استخدمت قرارات الأمم المتحدة آلية للقمع والعزل والتحكم سوى تلك التى تصدر ضد بلدان العالم العربى (كما حدث فى حالة العراق). لم يتعرض أى شعب لأعمال عنف إجرامية

من جانب الولايات المتحدة وحلفائها (بخاصة إسرائيل وتركيا) بكثرة مما تعرضت له الشعوب العربية (في فلسطين ولبنان والعراق). لذا هنا أن نذكر قول مادلين أولبرايت بأن مصالح الولايات المتحدة أكثر أهمية من موت نصف مليون طفل عراقي، وكذلك تصريح كوندليزا رايس بأن دماء مئات القتلى المدنيين أثناء عدوان إسرائيل على لبنان عام ٢٠٠٦ هي مخاض ولادة الديمقراطية والشرق الأوسط الجديد. وفي واقع الأمر، فلا يسمح للعرب أبداً أن يعتقدوا أن حياتهم واستقرارهم ومستقبلهم تعادل في قيمتها حياة واستقرار ومستقبل الإسرائيليين أو الأمريكيين أو الأوروبيين. مهما كان ثقل الواقع أو التاريخ، ومهما قاوموا هندستهم اجتماعياً واقتصادياً، أو ساروا في ركاب النيوليبرالية، فإن العرب والمسلمين يدركون جيداً أنهم سيظلون أنجاساً منبوذين في أعين العالم الغربي.